جامعة المنصورة
كليــة الآداب
ـ

الفـــــناء
عند عـــبدالقادر الجـــيلاني

إعـــداد
دكتورة/ فاطمة فـؤاد
أستاذ فسم الفلسفه مساعد
كلية الآداب – جامعة بنها

مجـلة كلـية الآداب – جامعـة المنصــورة
العدد الخامس و الخمسون – أغسطس ٢٠١٤

الفـــناء

عند عــبدالقادر الجــيلاني

د/ فاطمة فــؤاد

تمــهيد :

يمكننا القول دون مبالغة أن مفهوم الفناء كان من أهم الموضوعات التي ارتكز عليه الفكر الصوفي منذ بداية نشأته ، ذلك لأن الفناء هو أساس التوحيد ، ولكن درجة الفناء تختلف من شخص إلي أخر علي قدر توحيده ، وبالفناء يتحقق له قدرا هائلا من القيم الأخلاقية في الظاهر والباطن ، ومن هذه الوجهة يصبح الفناء عامل مهم في التوحيد ، ذلك لأن أهل التوحيد يحرصون علي الفناء عن الصفات المذمومة والبقاء بالصفات المحمودة .

ومن ثم كان بحثنا هذا محاولة للإبانة عن حقيقة الفناء ، من خلال شخصية من أبرز الشخصيات في القرن الخامس الهجري وهي شخصية عبدالقادر الجيلاني (٥٦١هـ) والذي يعد واحدا من أبرز الممثلين للتصوف السني في عصره والذي لقب في التراث المغاربي بالشيخ بو علام الجيلاني ، وبالمشرق عبد القادر الجيلاني و " تاج العارفين " و " محي الدين " و" قطب بغداد " وإليه تنسب الطريقة القادرية الصوفية [١] ، وفي مناقب الشيخ يقال أن له صفات حميدة ، ومآثر كبيرة ، فقد اشتهر بالأحوال والكرامات حتي تواترت عنه [٢] ، كما قال عنه شيخ الإسلام ابن تيميه " دان جميع العلماء والأولياء. في عصره للشيخ ، ففي الفقه نر أقرانه العلماء ، وخضعت له رقاب الأولياء[٣].

لقد كان الجيلاني سلفي العقيدة علي منهج أهل السنة والجماعة ، كما أنه من أصحاب الاتجاه المعتدل في التصوف والأقرب إلي أهل السنة والجماعة في أذواقه ومواجيده .وهذا ما يؤكده بقوله " كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة، طر إلي الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، أدخل عليه ويدك في يد الرسول " ص " أجعله زيدك ومعلمك ، دع يده تزينك وتمشطك وتعرضك عليه[٤].

أما عن شدة وسعة علمه يقال أن مجلسه كان يضم سبعين ألفاً ، وكان يتكلم علي الخواطر في نفسه ، ومن أشهر الروايات التي تؤكد ذلك ما رواه أبو بكر العماد " يقول كنت قرأت في أصول الدين ، فأوقع عندي شكاً ، فقلت حتي أمضي إلي مجلس الشيخ عبد القادر ، فقد ذكر أنه يتكلم علي الخواطر ، فمضيت وهو يتكلم ، فقال : اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة فقلت في نفسي : هذا قاله اتفاقاً ، فتكلم ثم التفت إلي ناحيتي . فأعاده فقلت الواعظ قد يلتفت ، فالتفت إلي ثالثة وقال:يا أبا بكر،فأعاد القول ، ثم قال قم قد جاء أبوك ، وكان غائباً . فقمت مبادراً وإذ أبي قد جاء [٥] .

ولقد عرف عن الشيخ الإيمان الراسخ وعقيدة التوحيد السليمة ، فلم تغيره الدنيا ، ولم ينظر إلي زخرفها . ورأي أن الأسباب إنما هي بيد المسبب عز وجل ، وليست الأسباب بيد الخلق من الأغنياء والأمراء والمتنفذين [٦].

والذي يعنينا من عبد القادر الجيلاني أقواله في الفناء خاصة وأنه من الصوفية السنين الذين تكلموا في المقامات والأحوال بشكل عام والفناء بشكل خاص في العديد من مؤلفاته ، فقد ألف الجيلاني العديد من المؤلفات التي لها أهميتها في مجال التصوف الإسلامي خصوصاً في القرن الخامس الهجري . فمن أهم ما تركه الجيلاني كتاب في الأصول والفروع وفي أهل الأحوال والحقائق والتصوف منها ما هو مطبوع منها وما هو مخطوط . كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني ، وكتاب فتوح الغيب ، وكتاب في الباطن والظاهر المسمي بجلاء الخاطر ، وكتاب الغنية لطالب طريق الحق ، وكتاب الطريق إلي الله ، وكتاب السفينة القادرية وكتاب سر الأسرار وكتاب ديوان ، وكتاب تنبيه الغبي إلي رؤية النبي ، وكتاب بهجة الإسراء ومعدن الأنوار في مناكب الباز الأشهب ، والرسالة الغوثية ، وآداب السلوك والتوصل إلي منازل السلوك ، وأوراد الجيلاني وتفسير الجيلاني ، والحديقة المصطفوية ، وبشائر الخيرات ، وكيمياء السعادة لمن أراد الحسني وزيادة ، والمختصر في علم الدين ، والفيوضات الربانية ، وحزب عبد القادر الجيلاني ، والمواهب الرحمانية ودعاء البسملة ، وحزب الرجاء والانتهاء ، ومعراج لطيف المعاني ، ويواقيت الحكم ، وإغاثة العارفين وغاية الواصلين [٧].

ويذكر بعض المؤرخين أن الجيلاني ألتقي وتأثر بالغزالي حتي أنه ألف كتابه (الغنية لطالبي طريق الحق) ، علي نمط كتاب (إحياء علوم الدين) ، فهو يشبه الغزالي من حيث أنه كان فقيها عالماً بالأصول والفروع ، يربط التصوف بالكتاب والسنة ، ولهذا مدحه ابن تيمية ويغلب علي أقواله الطابع الخلقي ، فمن ذلك قوله : ما دمت تراعي الخلق لا تهتدي لعيب نفسك ، وما دمت تراعي نفسك فأنت محجوب عن ربك) وقوله :(علامة حب الآخرة الزهد في الدنيا ، وعلامة حبه تعالي الزهد فيما سواه) وهو يري كالغزالي خطأ العلاج فيقول (عثر الحسين الحلاج فلم يكن في زمنه من يأخذ بيده). وقد وصف الشيخ علي بن الهيتمي " طريقته في التصوف فقال " وكانت طريقته تجريد التوحيد مع الحضور في موقف العبودية [٨].

ودراسة مفهوم الفناء عند الصوفية أو عند احد المتصوفة لم تكن هي الدراسة الأولي وإنما هناك العديد من الدراسات السابقة منها وليس علي سبيل الحصر .

١- الفناء والتصوف الإسلامي للأستاذ الدكتور/إبراهيم ياسين .

٢- الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي للأستاذ الدكتور/ أحمد الجزار .

٣- الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى دراسة مقارنة للدكتور/ عبدالباري محمد داود .

ومن هنا جاء الاهتمام بمفهوم الفناء عند الجيلاني بصفة خاصة لأنه لم يدرس بشكل أكثر تفصيلا عنده ، وهذا هو سبب اختياره لموضوع البحث .

وسوف نركز حديثنا علي الفناء عند الجيلاني من خلال المحاور الآتية :-

١- الفناء والتمسك بآداب الشريعة .

٢- الفناء والتوحيد .

٣- الفناء والمقامات والأحوال .

وفيما يلي تفصيل القول في تلك المحاور ما حسب الترتيب الذي أوردناه سابقا :-

١ - الفناء والتمسك بآداب الشريعة :

ولما كان الفناء هو اضمحلال وتلاشي وعدم أهواء النفس ؟ فإن الفناء عند الصوفية السنين حال عارض لا يدوم للصوفي ، لأنه لو دام التعارض مع أدائه لفروض الشرع ، وفي هذا يقول أبو بكر الكلاباذى في كتابه " التعرف " وحالة الفناء لا تكون علي الدوام " لأن دوامها يوجب تعطيل الجوارح عن أداء المفروضات وعن حركاتها في أمور معاشها ومعادها [٩].

فمن باب العبودية هو الفناء ومن هذه الناحية يكون للفناء معني أخلاقي كما يذكر د/إبراهيم ياسين إذ يقول " وهكذا يصير ارتقاء الصوفي الفاني رهناً بفعلين أولهما التخليه وفيها يتخلي عن كل ما يهبط بالنفس ويجذبها إلي مستوي الأهواء الدنيا من الذات وآثام وشرور – وثانيهما التحلية وفيها يتحلى بالأخلاق الحسنة والفصائل الروحية التي تسمو بالبشرية إلي أعلي مراتبها ، يقول القشيري في رسالته "فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال فني عن شهواته – فإذا فني عن شهواته بقي بنيته في عبوديته ومن زهد في دنياه بقلبه يقال فني عن رغبته فإذا فني عن رغبته فيها بقي بصدق إنابته ومن عالج أخلاقه فنقي عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر وأمثال بالفطرة والصدق [١٠]، وإذا كان للفناء معني أخلاقي وهو الترقي الأخلاقي من تخلي النفس عن المذمومات والتحلي بالمحمودات فإن للفناء أيضاً معني نفسي يحقق الطمأنينة والاستقرار النفسي من خلال فناء الجوارح عن الأهواء والملذات والتوجه إلي الذات الإلهية ، وفي هذا أيضاً يقول د/إبراهيم ياسين " ويصل السالك إلي حال الفناء النفسي نتيجة لتعلقه الشديد بالذات الإلهية ذلك التعلق الذي يصاحبه توجيه كل أجهزة الاستقبال البشرية سواء كانت قوى عقلية مدركة أو حاسية مستشعره إلي اتجاه واحد بعينه هو اتجاه الذات الإلهية بحيث لا يعود الشخص شاعراً بنفسه"[١١].

ويتحدث عبد القادر الجيلاني عن عدم الركون إلي الدنيا مبيناً أن الاعتماد علي القدرة وترك العمل هي حجة الكسالى ، وأن الاعتماد علي الأسباب يخرج الإنسان من الاعتماد علي الحق تعالي والتوكل عليه . وإنما يكون العذر بالقدر في غير الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول "الدنيا كلها حكمة ، وعمل الآخرة كلها قدرة ، فهذه مبنية علي الحكمة وتلك مبنية علي القدرة ، فلا

تترك العمل في دار الحكمة ولا تعجز قدرته في دار القدرة . أعمل في دار الحكمة بحكمته ولا تتكل علي قدرة لا تجعل القدر عذراً لنفسك فإنك تحتج به وتترك العمل ، العذر بالقدر حجة الكسالي ، إنما يكون العذر بالقدر في غير الأوامر والنواهي [١٢].

أن الفناء عند الجيلاني حال يتبعه بقاء ،وهو فناء المؤمن عن الخلق وحظوظ النفس وإيثار أوامر الله تعالي علي أهواء القلب والذهول عن الخلق والإخلاء في حضرة المحبوب الأكبر رب الأكوان أنت فوق الصحب عندي فإذا غبت عن عيني لم ألق أحد [١٣] .

اتفق معظم علماء الصوفية منذ القرن الثالث الهجري علي أن الفناء هو المقام الذي تفني فيه أحوال السائرين وتظهر صفاته وأخلاقه الحميدة وتفني صفاته وأوصافه الذميمة ، ويصل العبد في هذا المقام إلي مرتبة إنكار الذات أمام الحق تعالي والبقاء به ، وهذا الفناء لا يدوم طويلاً . وإنما يتبعه بقاء مع الحق تعالي ولهذا افرد الجيلاني المجلس الثاني والخمسون من كتاب الفتح الرباني والفيض الرحماني في الحديث عن النظر إلي الناس بعين الفناء بقوله : فروا إلي الله عز وجل . اهربوا إليه من الخلق والدنيا ومما سواه في الجملة صيروا إليه بقلوبكم ، أما سمعتم قوله عز وجل "ألا إلي الله تصير الأمور" الشورى : أية ٥٣.

العلاقة بين الفناء والبقاء علاقة عكسية فإذا فني الإنسان عن صفاته المذمومة ظهرت صفاته المحمودة وإذا ظهرت صفات الحميدة ،استترت صفاته المذمومة واختفت ، وهذا يكون بالتدريب والتعود وهذا ما أكده القشيري بقوله في الرسالة " وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الأخر لا محالة فمن فني عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة " [١٤].

أما عن الفرق بين الفناء والبقاء ، فهو أن الفناء غيبة ومحو والبقاء صحو وإحساس بما حوله ، وفي هذا يقول د/إبراهيم ياسين " البقاء شعورنا بالذات والأغيار إذ يصبح الصوفي في هذه الحال محساً بنفسه ، محساً بما يحيط به غير غافل عما يجري حوله من أحوال الخلق فهو صحو بعد الغيبة ، والفناء ذهول وعدم التفات إلي النفس أو إلي الغير وهو تركيز واضح علي الذات الإلهية بل يمكن أن نقول أنه تذويب أو سحق للذات الفردية ، والبقاء هو بقاء حقيقة الفرد وتأكيد الذات المخلوقة التي تبقي في الله الخالق ، الفناء رحلة يقطعها الصوفي إلي الخالق عز وجل وأما البقاء فهو رحلة في الله عز وجل يقول عبد الرحمن الجامي" وتحقيق ذلك أن كل من يفتح هذا الباب في الحقيقة عن طريق السلوك أو الجدية أن يجلس في الخلوة غائباً عن وجود نفسه متخلياً عن ذاته وصفاته يري نفسه في مرآه حبيبه وحبيبه في مرآة نفسه ... والبقاء عند الصوفية أكمل من الفناء لأنه إحساس بالذات وإحساس بالعالم الخارجي [١٥].

الفناء هو التمسك بآداب الشريعة من الفناء عن ما نهيت عنه والبقاء بما أمرت به . والفناء يكون علي ثلاث درجات هي الفناء عن أوصاف النفس وخبائسها ثم الفناء عن الأخيار والسوي ، ثم عنهما جميعاً وبالبقاء بالحق تعالي ، وإذا قيل فني عن نفسه وعن الخلق فنفسه موجودة والخلق موجودون لكنه لا علم له بهم ولا به ولا إحساس ، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين غير محس بنفسه وبالخلق وهذا ما حدث في قصة النسوة التي دخلان علي يوسف عليه السلام حيث قـــــال تعـــــالي فـــــيهم "فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن " سورة يوسف: أية ٣١.

لم يجدن علي لقاء يوسف عليه السلام علي الوهلة ألم قطع الأيدي وهن أضعف الناس وقلن ما هذا بشراً ولقد كان بشراً ...فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق فما ظنك بمن تكاشف بشهود الحق سبحانه [١٦].

لقد ذهب الجيلاني إلي أن عدم الالتزام بالأوامر الشرعية وإتباع أهواء النفس يخرج الإنسان من درجة الكمال ويعيش حياة الشقاء والفقر والحرمان والبعد عن الحق تعالي ، ولهذا اعتبر أن مخالفة الهوي هو من أبرز مظاهر الالتزام بالأوامر الشرعية وحياة للإرادة ، وفي هذا يقول : أقتلع أعشاب الهوي تتنامى في دوحة الكمال ، إذا مت عن الخلق قيل لك رحمك الله واماتك عن هواك ، وإذا مت عن هواك قيل لك رحمة الله وآماتك عن إرادتك ومناك ،وإذا مت عن الإرادة قيل لك رحمك الله وأحياك ، فحينئذ تحيا حياة لا موت بعدها ، وتنعم بنعيم لا يؤس بعده ، وتغني عني لا فقر بعده ، وتعطي عطاء لا منع بعده ، وتراح براحة لا شقاء بعدها .....وتسعد فلا تشقي ، وتعز فلا تزل ، وتقرب فلا تبعد [١٧].

فالفناء في ضوء ما قاله الجيلاني لا يعني أكثر من فناء العبد عن نفسه وأهوائها وكذلك الفناء عن كل ما سوي الله تعالي فينعم بالتجليات والمعارف الإلهية وفي هذا يقول الجيلاني : العبد إذا فني عن نفسه وهواه وإرادته وعن الخلق صار في قبضة الآخرة بمعناه ، وفي الدنيا بصورة ، يصير في علم الله عز وجل وفي قبضة سابحاً في بحر قدرته [١٨] ، ومعني هذا أن الفناء عند الجيلاني يتطلب من الصوفي أن يفني عن ذاته وأن يبقي بذات الحق تعالي ، وعلي ذلك فالفناء لا يعني الانعدام التام للذات ، بمعني الانتقال من حالة الوجود إلي حالة اللا وجود أو العدم ، وإنما يعني انعدام الوجود البشري ذاته ، من حيث أن الصوفي موجود في حالة فنائه ، وهذا يتفق مع طبيعة الفناء ذاته كمال من الأحوال الصوفية ، ذلك لأن حالة الفناء لا تدوم طويلاً . كما أن قوة حال الفناء تكون من الله تعالي ، وفي هذا يقول الجيلاني : كن مع الله عز وجل كأن لا خلق ، ومع الخلق كأن لا نفس . فإذا كنت مع الله عز وجل بلا خلق وجدت ، وعن الكل فنيت ، وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن السبعات سلمت ، واترك الكل علي باب خلوتك ، وادخل وحدك ترمؤ نفسك في خلوتك بعين سرك [١٩].

فالفناء لا يدوم طويلاً ، وإنما يستغرق فترة من الزمان ثم يتبعه بقاء وهذا هو أعلي درجات الفناء وهو الفناء عن النفس والخلق والأغيار والسوي ثم الفناء عن الفناء والاستغراق التام مع الذات الإلهية ، وفي هذه الحالة تكون طبائعه طبائع الملائكة ثم الفناء عنها ، وفي هذا يقول الجيلاني : يا هذا : الفناء إعدام الخلائق وانقلاب طبعك عن طبع الملائكة ، ثم الفناء عن طبع الملائكة ، ثم لحوقل بالمنهاج الأول وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك ، ويزرع فيك ما يزرع [٢٠].

فتحول الطبائع البشرية إلي الطبائع الملائكية لا يكون إلا بالأعمال الصالحة ومجاهدة النفس وعدم موت القلب وغفلة عن الله تعالي فعند ذلك ينعم القلب بالأسرار ويفني عن والأغيار ويبقي بالحق تعالي ، وفي هذا يقول الجيلاني : يا هذا : المؤمن إذا عمل صالحاً انقلبت نفسه قلبا وأدرك مدركات قلبه ، ثم انقلب قلبه سرا ثم انقلب الفناء فصار وجوداً وبقاء[٢١].

والفناء عند الجيلاني يكون علي ضربين هما فناء الظاهر وفناء الباطن ، فناء العبد عن نسبته إلي غير الله في كل شيء ومن هذه الحقيقة فلا بد للصوفي أن يفني عن وجوده البشري الفاني ليبقي بصفات الله ووجوده ، وفي هذا يقول الجيلاني : فلا

تشتغل بالخلق لا في الظاهر ولا في الباطن ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، بل إلزام الصبر والرضا والموافقة والفناء إليه عز وجل ، والتضرع والتظلم من شؤم النفس ونزاهة الحق عز وجل والاعتراف له بالتوحيد بالنعيم والتبرى من الشرك ومطلب الصبر والرضا [٢٢].

والجيلاني يضيف إلي المعنيين السابقين للفناء معني آخر ، وهو المعني الذي فهمه من الحديث القدسي (كنت سمعه وبصره ويده ..... إلي أخر الحديث ، فالفاني إذا أحقت محبته لله تعالي بالفناء عن الخلق والهوى والأماني أحبه الله تعالي واصطفاه وفي هذا يقول : إذا فني العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة ....والأماني دنيا وأخري ولم يرد إلا الله عز وجل وخرج الكل عن قلبه وصل إلي الحق ، واصطفاه واجتباه ، وأحبه وحببه إلي خلقه ، وجعله يحبه ويحب قربه ، ويتنعم بفضله ويتقلب في نعمه وفتح عليه أبواب رحمته ووعده لا يغلقها عنه أبداً ، فيختار العبد حينئذ الله ، ويدبر بتدبيره ويشاء بمشيئته ، ويرضي برضاه ويتمثل أمره دون غيره ، ولا يري لغيره عز وجل وجوداً ولا فعلاً [٢٣].

فالصوفي حين يفني عن كل الصفات ويفني عن كل شيء ، فإنما يفني عن كل ما سوي الله تعالي ، ليبقي في الوقت نفسه بالله ، فالفناء والبقاء بالذات الإلهية حالان

مرتبطان ، فالفناء هو فناء الإنسان عن الجانب الإنساني ، والبقاء هو بقاء الجانب الإلهي فيه لأنه الأدوم والأشرف .

وفي هذا يقول الجيلاني : إلهي حقق باطني بسر هويتك ، وأفني مني أنانيتي إلي أن تصل إلي هوية (ذاتك) العلية ، يا من ليس كمثله شيء ، أفني عني كل شيء غيرك ، وخفف عني

ثقـل (كثـائف) الموجـودات ، وامـنـح عنــي نقطــة الغيريـة لأشـاهدك ولا ادري غيـرك [٢٤] ، ومـن أحـد معاني الفناء عند الجيلاني هو فناء الإرادة والرضا بالمقـادير والبقـاء بـإرادة الله تعـالي فـي كـل أحوالـه مطمئن الحنان مشروح الصدر – الفناء عن الخلق – الدرجة الثانية من درجات الفناء وهذا من حسن الأدب مع الله تعالي والالتزام بأحكام

الشـريعة ، وفـي هـذا يقـول: وعلامـة فنـاء إرادتـك بفعل الله عز وجل أنك لا تريد مع إرادته مراد قط ، ولا يكـون لـك غـرض ، ولا تقـف لـك حاجـة ولا مرام ، لأنك لا تريد مع إرادة الله تعالي سواها ، بل يجري فعل الله تعالي فيك ، فتكون أنت إرادة الله تعـالي وفعلـه سـاكن الجـوارح ، مطمـئن الجنــاح مشروح الصدر .... غنياً عن الأشياء بخالقها ، تقلبك يد القدرة فتفني عن أخلاق البشرية ، فلن يقبل باطنك شيئاً غير إرادة الله عز وجل ، فحينئذ يضـاف إليك التكوين وخرق العادات ، فيري ذلك منـك فـي ظـاهر الفعـل والحكـم ، وهـو فعـل الله وإرادتـه حقـاً فـي العـالم ، فتـدخل حينئـذ فـي زمـرة المنكسرة قلوبهم الذين كسر إرادتهم البشرية وأزيلت شـهواتهم الطبيعيـة فاسـتؤنفت لهـم إرادة ربانيـة كمـا قـال النبـي (ص) " لا يـزال عبـدي يتقـرب إلــي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ......[٢٥].

فاشتغال العبد لا يكون إلا بـالأوامر الإلهيـة لأنـه خلق للقيام بها وهذا من حسن الأدب مـع الله تعالي ، فلا تؤثر عليه غيره ، فإنه خلقك لـه ، فـلا تظلم نفسك فتشتغل بغيره عن أمره ، فيدخلك نـاره التي وقودها الناس والحجارة فتندم فلا ينفع الندم ، وتعتذر فلا تـُعذر ، فتستغيث فلا تغاث [٢٦].

فـإذا زالـت الأمــاني ومـات هـوى الـنفس وخمــدت الصــفات البشــرية دخلــت فــي زمــرة الروحـانيين ، فتـنعم بالأسـرار والمعـارف الإلهيـة ، فإماتــة هــوى الــنفس شــرط للــدخول فــي زمــرة الروحانيين والتمتع بالمشاهدة والنور الإلهي ، وفـي هذا يقـول الجيلانـي : إذا فنـى العبد من الأخـلاق الإنسانية والصفات البشرية وبقي روحاً فقط يسمع نداء في باطنه " اركض برجلك هذا بارد وشراب" كما قيل لسيدنا أيوب عليه السلام فيتمطر الله عز وجل في قلبه بحار رحمته ورأفته ولطفه ومننـه ، ويحببه بروحه ويطبه بمعرفته ودقائق علومه ويفتح عليه أبواب رحمته ونعمته ودلاله [٢٧].

وفــي أكثـر مـن موضـع يؤكـد الجيلانــي أن بدايــة درجــات الفنــاء هــو الفنــاء عــن الصــفات الإنسـانية والبقـاء بالصـفات الإلهيـة حتـى يصـير روحـاً منفردة ، وتسر بالأسـرار الإلهيـة وفـي هـذا ينصـح الجيلانـي بقولـه : لا تطمـع أن تـدخل فـي زمرة الروحـانيين حتـى تعـادي جملتك وتبين جميع الجوارح والأعضـاء ، وتنفرد عن وجودك وحركاتك ...... لأن جميع ذلك حجابك عن ربك عز وجل [٢٨].

وينبـه الجيلانــي إلــي ضـرورة عـدم اغتـرار الصوفي بما يرد عليه من النعم والعطايا والمعارف نتيجـة لفنائـه فـي الـذات الإلهيـة ، فـإن هـذا يجلـب عليه البلايا وتزول النعم ، كمـا أن الجيلانـي يؤكـد علــي أن هــذا النــوع لا يــدوم طــويلاً وهــو فنــاء

المجذوب ، وإنما يستغرق أوقات قصيرة ، وإنما الحالة الأفضل هي البقاء الذي يتبع هذا لفناء نتيجة الجذب الإلهي وهذه الحالة تسمي فناء الفناء ، وفي هذا يقول الجيلاني : المؤمن إذا قربه الله إليه واجتباه فتح قبالة عين قلبه باب الرحمة والمنة والإنعام ، فيري بقلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت .....ويسبغ عليه نعمة ظاهرة علي جسده وجوارحه في المأكل والمشروب والملبوس والمنكوح الحلال والمباح وحفظ الحدود والعبادات الظاهرة فيديم الله عز وجل ذلك لعبده المؤمن المجذوب برهة من الزمان حتى اطمئن العبد إلي ذلك واغتر به واعتقد دوامه فتح عليه أبواب البلايا وأنواع المحن في النفس والمال والأهل والولد والقلب ، فينقطع عنه جميع ما كان أنعم الله عليه من قبل [٢٩].

أما الفناء عند الصوفية المتفلسفين أرتبط بالقول بنظرية وحدة الوجود، أي رؤية الله تعالي متجلي في كل المخلوقات ، فالحق تعالي هو الوجود الواحد المطلق والأغيار والسوي لا وجود لها إلا به، ولكي يتحقق القلب بالفناء عن السوي والبقاء بالحق لابد له من الطهارة " طهارة القلب من حيث هي ضرورة للمعرفة – تتم بالوسائل العلمية كالمجاهدات والرياضات ومنها الحلوة والذكر فهما معا وسيلة القلب لقطع كل الشواغل التي تقطعه عن الحق من ناحية ، وهما معا يسهمان في الوقت نفسه في حصول المعرفة للإنسان إذا ما احكم كل منهما فالخلوة وسيلة للقلب تمكنه من نفي والأغيار عنه بوضعهم عين الحجاب عن الحق ....، والذكر أيضاً لا يقل أهمية عن الخلوة في تحقيق التجلية للقلب من ناحية وفي حصول المعرفة بالله عن طريق من ناحية أخري" [٣٠].

ويذهب الدكتور/ أحمد الجزار إلي القول بأن معني الفناء عند ابن عربي هو حالة الاستغراق التام من جانب الإنسان في موضوع ما وهو بالنسبة للصوفية ، هو الحق تعالي ، وهذا الاستغراق الذي يقصدونه من الفناء ، هو حالة قد تلازم أي إنسان إذا أدام النظر والتفكير في مسألة معينة ، فهذه أدني درجات الفناء في حكم المتفكر لأنه إذا استغرق الإنسان الفكر – كما يقول ابن عربي في أمر من أمور الدنيا أو في مسألة من العلم ، فتحدثه ولا يسمعك وتكون بين يديه ولا يراك" [٣١].

فالفناء ليس غاية في ذاته وإنما هو أداة للتحقق بالوحدة الوجودية وهذا ما أكده ابن عربي (ت٦٣٨هـ) وهذا ما أكد عليه الدكتور/ إبراهيم ياسين بقوله " أما الفناء عند محي الدين بن عربي فكان نوعاً من الجمع الواحدي الذي يشعر فيه السالك بوحدة الحق والخلق ، فأدي بصاحبه إلي القول بنظرية في وحدة الوحدة ، وكان الفناء عند عبد الحق بن سبعين (ت٦٦٨هـ) مقاماً للمحقق أو المقرب وإيغالاً في الوحدة المطلقة"[٣٢].

ويتفق مع ابن عربي وابن سبعين قول عبد الكريم الجبلي (ت٨٠٥هـ) عن الفناء " وهذا آخر مقام الوصول والقرب فيه ينكر العارف معروفة لا يبقي عارف ولا معروف ولا عاشق ولا معشوق فلا يزال يفني منه الاسم ثم الوصف ثم

الذات فلا يبقي عاشق ولا معشوق ، ويقول أيضاً وأعلم أن هذا الفناء هو عبارة عن عدم الشعور باستيلاء حكم الذهول ففناؤه عن نفسه عدم شعوره به ، وفناؤه باستهلاكه فيه" [٣٣].

أما عن معني الفناء عند الطرق الصوفية كالشاذلية والرفاعية يقوم علي إسقاط التدبير وشهود الأحدية في الوجود في كال الأحوال وهذا ما يبرزه الدكتور إبراهيم ياسين بقوله " ووجدنا الفناء عند غالبتهم – الطرق الصوفية – فناء عن إرادة السوي وإسقاط للتدبير ، وهو فناء للصفات وليس للذات والصفات التي تفني هي الصفات القبيحة والبقاء يكون للصفات المحمودة ، وشاع عندهم أن النفس هي أشد الحجب شاء الوصول ، ومن هنا يجب التجرد عن الشهوات وإسقاط ما سوي الله شهوداً ، حتي يصل السالك إلي مقام شهود الأحدية وبالوصول إلي هذا المقام لا يشاهد إلا وجوداً واحداً وهو وجود الواحد الحق جل شأنه – ولقد سيطرت علي أحوالهم وبخاصةً حال الفناء فكرة إسقاط التدبير والإرادة مع الله جل شأنه " [٣٤].

فالفناء هو الوجه السلبي للبقاء بالله تعالي، ولا يتم البقاء بالله إلا بالفناء عن النفس ، كما لا يتم الفناء هكذا فجأة وبدون مقدمات ، شأنه في ذلك شأن الوصول إلي البقاء بالله تعالي ، وهذا الفناء هو فناء معنوي ، إذا يفني فيه السامع عن الشعور بالإحساس ، كما أن شهود الأحدية هي من غايات المعرفة الإلهية عند الصوفية السنين ومنهم الغزالي ومن بعده الجيلاني ، أي لا يشهد العارف إلا الله وما عداه وهم ظلال ، وهذا ما يوضحه الغزالي بقوله ليس بين العبد وبين الله إلا حجاب نفسه وعوارضها ، فإذا فني عنها وعن عوارضها وعلم قيام العالم كله بقدرة الله تعالي عرف قرب الله تعالي ، فإذا نطق العارف فلا ينطق بنفسه وإذا سمع فلا يسمع إلا نفسه "[٣٥].

٢ - الفـناء والتوحيد :

ويؤكد الجيلاني على ضرورة ارتباط الفناء بالأوامر الشرعية ، بل أعتبر الفناء هو أساس التوحيد ، وأن إتباع الأمر علي قسمين أحدهما : أن تأخذ من الدنيا القوت الذي هو حق النفس وترك الحظ ، وتؤدي الفرض وتشتغل بترك (الذنوب) ما ظهر منها وما بطن .

والقسم الثاني : ما كان (بأمر) باطن ، وهو أمر الحق عز وجل ، يأمر عبده وينهاه ، وإنما يتحقق هذا الأمر في المباح الذي ليس له حكم في الشرع ، علي معني أنه ليس من قبيل (النهي) ولا من قبيل الأمر الواجب ، بل هو مهمل ، ترك العبد يتصرف فيه باختياره ، فيسمي مباحاً ....فتصير جميع حركاته ، وسكناته بالله عز وجل ......فحينئذ يصير محقاً من أهل الحقيقة ، وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حال (التسليم) [٣٦].

إن الجيلاني قد جعل الفناء هو من أقوي أسباب الوصول إلي الكشف ولا يكون ذلك إلا بالتبري عن الحول والقوة وهذا من باب التوحيد وإسقاط التدبير ، وفي هذا يقول د/إبراهيم ياسين " وأما الفناء عند عبد القادر فهو تبري من الحول والقوة ونفى الشرك بالله وتجريد للتوحيد وإسقاط

التدبير يقول في الغنية ثم يرفع عن الحجب – يقصد الولي – ويدخل دار الفردانية ويكشف عنه الجلال والعظمة فإذا وقع بصره علي الجلال والعظمة بقي بلا هو فانياً عن نفسه وصفاته عن حوله وقوته وحركته وإرادته أو مناه ودنياه وأخراه شفافاً قابلاً للكشف – تتبين فيه الأشياخ فلا يحكم عليه غير القدر ولا يوجده غير الأمر فهو فان عنه وعن حظه "[٣٧] .

والدرجة الثالثة من الفناء عند الجيلاني ، وهي الفناء عن صفات الخلق لا يتحقق إلا لمن بلغ مرتبة الكمال (الإنسان الكامل) واتصف بصفات الملائكة وابتعدت عنه صفاته البشرية ، ولهذا جعل المقالة السادسة من كتاب فتوح الغيب للحديث عن الفناء وكذلك في كتاب آداب السلوك ، إذ جعل الفناء هو إعدام الخلائق وتغير الطبع من طبق الخلائق إلي طبع الملائكة ، ثم الفناء عن طبع الملائكة يكون ذلك بالإسلام والاستسلام لإرادة الله تعالي ، وفي هذا يقول : أفني عن الخلق بإذن الله تعالي وعن هواك بأمر الله تعالي وعن إرادتك بفعل الله تعالي ، وحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالي ، فعلامة فنائك عن خلق الله تعالي انقطاعك عنهم وعن التردد واليأس مما في أيديهم ، وعلامة فنائك عن هواك ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع ، ودفع الضر ، فلا تحرك فيك ولا تعتمد عليك لك ولا تذب عنك ولا تنفر نفسك ، فكل ذلك كله إلي الله تعالي لأنه تولاه أولاً فيتولاه آخراً ، كما كان ذلك موكولاً إليه في حال كونك معنياً في الرحم ، وكونك رضيعاً طفلا في مهدك . وعلامة فنائك في الرحم ، وعلامة فنائك عن إرادتك بفعل الله أنك لا تريد مراد قط ولا يكون لك غرض ، ولا يبقي لك حاجة ولا مراد [٣٨] .

وافق ابن تيمية الجيلاني القول في الدرجة الأولي من الفناء وهي الفناء عن أهواء النفس وملذاتها وصفاتها الخبيثة ورفض القول بالدرجة الثالثة التي حدث فيها مغالاة لدي بعض رجال التصوف لأنها أدت إلي نظريات مستحدثه ليست لها أصول في الكتاب والسنة ، علي حين في الوقت ذاته مدح ابن تيميه أوائل رجال التصوف ، ومن ثم يقول ابن تيميه " والفناء عن وجود السوي أقرب إلي الزندقة ، والكفر ، لأنه كان الأساس الذي خرجت منه مذاهب لوحده الوجود أو الوحدة المطلقة ، وما يقرب منها كالقول بالإتحاد ، أو الحلول المطلق منه أو الخاص المقيد ، إلي أخر هذه المواقف التي ينبذها فقهاء الإسلام ..... ويبقي أن تؤكد مع القشيري والجنيد والسراج وغيرهم بأن الصوفية الكُمل هم هؤلاء الذين كانوا في فنائهم مثبتين وأعين تمام عبوديتهم للخالق جل شأنه وهم في هذه العبودية ينزهونه عن كل ما يتعلق بالبشرية من صفات وأعمال واعين بالتكاليف قائمين بالطاعات غير مضيعين للأمر والنهي ، وحقيقة هذا الفناء نلخصه في الآيتان الكريمتان "كل من عليها فان ، ويبقي وجه ربك ذو الجلال والإكرام "سورة الرحمن : أية ٢٦-٢٧" [٣٩].

وعن ارتباط الفناء بالتوحيد يجعل الجيلاني التوحيد شرط أساسي للفناء عن والأغيار والصور ، وفي نفس الوقت لا يكون الصوفي

موحد وفي قلبه ذرة لغير الله تعالي ، وفي التوحيد القرب منه والبعد عما سواه وكذلك محبته تعالي وهذا ما أكد الجيلاني بقوله : وحد الحق عز وجل حتى لا يبقي في قلبك من جميع الخلق ذرة لا ترى داراً ولا دياراً ، التوحيد يقتل الكل ، كل الدواء في التوحيد للحق عز وجل وفي الإعراض عن حية الدنيا ، اهرب عن هذه الحية إلي أن يجيتك الحواء ، فيقلع أضراسها وينزل سمائها ويقربك إليه ويعرفك صنعته ويسلمها إليك وما بقي فيها أذبه فتتصرف فيها وهي لا تقدر تلسعك (٤٠) .

الفناء هو المحو ، وهذا المحو يثمر النور الإلهي في القلب ويظهر أثره علي ظاهرك ، وهذا المحو لا يتحقق إلا بالتوحيد للحق تعالي والإقرار بأنه لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله (ص) ، وعن الفناء وارتباطه بالتوحيد يقول الجيلاني أيضاً : تقام عن الجهات كلها ولا تبصص علي شيء منها ، فما دمت تنظر إلي واحدة منها لا يفتح لك جهة فضل لله عز وجل وقربه ، فسد الجهات جميعاً بتوحيده وإمحاء نفسك ثم فنائك ومحوك وعلمك ، فحينئذ يفتح شعاع نور قلبك وإيمانك ويقينك فيظهر عند ذلك النور من باطنك علي ظاهرك كنور الشمعة التي في البيت المظلم في الليلة الظلماء يظهر من كوي البيت ومنافذه فيشرق ظاهر البيت بنور باطنه فتسكن النفس والجوارح إلي وعد الله وعطائه عند عطاء غيره ووعد غيره عز وجل(٤١) .

التوحيد يتطلب الفناء عن والأغيار والسوي ويثمر المعرفة والتمتع بالأسرار والأنوار الإلهية وفي هذا يقال : إذا أحكمت الإيمان وصلت إلي وادي المعرفة ثم إلي وادي الفناء عنك وعن الخلق ثم إلي الوجود .... عاملوه بالتوحيد والأعمال الصالحة ، وترك الدنيا والإعراض عنها ، وأخذ الآخرة والإقبال عليها والرغبة فيها ، وترك المعاصي والزلات وهجرها (٤٢) .

لا يكتمل التوحيد وفي القلب شغف وتعلق بملذات الدنيا ، والموحد الحقيقي هو المتعلق قلبه بالحق تعالي ، راضي بقدره ولا تكون له إرادة مع الله تعالي ، وهذا ما أكد عليه رجال التصوف المعتدل ومنهم الجيلاني بقوله : الموحد ما عنده خير من السلطان ولا من الشيطان ، هو ناحيه عنهما قائم بقلبه مع الرحمن ، يري تصاريف الحق وأفعاله فيه وفي خلقه ، يده في حلقتي مصرعي القضاء والقدر ....يصير هذا العبد الذي وصل إلي هذا المقام فانياً عن موجوداً بربه عز وجل (٤٣) .

فالتوحيد وقوة الإيمان فيها منافع خاصة للصوفي ومنافع عامة للخلق ، وذلك يكون بصلاح القلب وعدم تعلقه بالأغيار والسوي ، ولا يبقي في قلبه شيئاً غير الله تعالي ، وفي هذا يقال : إذا صح قلبه وصلح لربه عز وجل جعل فيه منافع للخلق عامة وله خاصة ، نفع خاص وعام : ما ظهر للخلق وما بطن ، له الجهر للخلق والسر لهم ، هذا الأمر أوله لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله ، وآخره استواء الحمد والذم والخير والشر ، والنفع والضر والقبول والرد وإقبال الخلق وإدبارهم صحح الأول حتى يصح الثاني الأعمال بخواتيمها (٤٤) .

إن الاشتغال والتعلق بالأسباب والأغيار من باب الشرك بالله تعالي وعدم توحيده ، لهذا لا بد من الفناء عنها والبقاء بالحق تعالي وهذا ليس من باب المصادفة وإنما من باب الصدق والإخلاص لله تعالي ومن ثم الاشتغال بغير الله عز وجل شرك وطالب الحظ ليس بصادق في محبته وولايته فمن احتال مع الله غيره ، فهو كذاب وطالب العوض علي عمله غير مخلص [٤٥] .

فحفظ القلب من التعلق بالسوي والرضا عند نزول البلاء هو من باب التوحيد والصدق فيه بحيث لا تكون له إرادة مع إرادة الله وتعامي عمن سواه عز وجل وفي هذا يقول الجيلاني : احفظ قلبك من الالتفات إلي ما تركته والرضا عند نزول البلاء واستطرح بين يدي الله عز وجل كالكرة بين يدي الفارس يقلبها بصولجانه ، والميت بين يدي الغاسل ، والطفل الرضيع في حجر أمه وظئره ، تعامي عمن سواه عز وجل فلا تري لغيره وجوداً ولا ضرا ولا نفعا ولا عطاء ولا منعا [٤٦] .

ويذهب الجيلاني إلي أن الأخذ بالأسباب هي طريق النجاة من الظلمات ، ويكون الأخذ بالأسباب مرتبط بعدم التعلق بها مع التمسك بالأمر والنهي . وفي هذا يقول : أرحم نفسك وأشفق عليها ، استعمل الآلات والأدوات التي أعطيتها في طاعة مولاك ، من العقل والإيمان . والمعرفة والعلم ، لتستنير بنورهما في ظلمات الأقدار ، وتمسك بالأمر والنهي ، وسر بهما في طريق مولاك ، وسلم ما سواهما إلي الذي خلقك وأنشأك [٤٧] .

ويظهرنا الجيلاني إلي نقطة مهمة وهي أن في الإنسان جانبين جانب الخير وجانب الشر ، وبالفناء عن النفس وملذاتها وكذلك الفناء عن الخلق يتحقق الجانبين ، وعلي الفاني ألا يخاف من شر العباد ولا يرجوا خيرهم لأنه لا خير إلا بيد الله تعالي وهذا من آداب السلوك عند الصوفية إذ يقول هكذا حالة الفناء لا غير ، وهو أن تفني عنك " فإذا أفنيت عنك وعن الخلق ، والخلق إنما هو خير وشر . وكذلك أنت خير وشر ، فلم ترج خيرهم ولا تخاف شرهم [٤٨] .

ويشرح د/إبراهيم ياسين ذلك بقوله " وأما القول بأن الأمر الإلهي إنما يتجه إلي الخير دائماً ، ويكون الشر تبعاً لذلك من فعل الإنسان وكسباً له ، فإنه رأي مقبول من الناحية الدينية في الفكر الإسلامي ، إلا أن الله يبين لنا في أكثر من موضع من القرآن أن الخير والشر أمر لا حيلة للإنسان فيه لقوله تعالي "وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله " سورة يونس : أية ١٠٧ [٤٩] .

ويتوسع الجيلاني في بيان أهمية مجاهدة النفس كطريق موصل إلي الفناء والنجاة من آفات النفس ، وفي هذا يقول : كن في الدنيا ، إذا رأيتها غض بصرك عن زينتها ، وسد علي أنفك مما يفوح من روائح شهواتها ولذاتها ، لتنجو منها ومن آفاتها ، ويصل إليك قسمك منها وأنت فيه مهنا ، قال الله عز وجل لنبيه المصطفي (ص)

" ولا تمدن عينيك إلي ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقي "

سورة طه : ١٣١ (٥٠) .

ولكي يتحقق العبد بحال الفناء لابد له من السيطرة علي القلب ، وذلك يكون باستبدال الصفات والأخلاق الذميمة بالصفات والأخلاق الحميدة والامتثال للأوامر الإلهية والابتعاد عن النواهي لأن في عدم متابعة الأوامر الإلهية هلاك العبد وقسوة القلب ، وفي هذا يقول : أخرج من نفسك وتنح عنها ، وأنعزل عن ملكك وسلم الكل إلي الله عز وجل ، وكن بوابة علي باب قلبك ، وأمتثل أمره عز وجل في إدخال من يأمرك بإدخاله وانته منه ، فإخراج الهوى من القلب بمخالفته وموافقته ، فلا ترد إرادة ، غير إرادته عز وجل ، وغير ذلك منك تمني وهو مادي الحمقى ، وفيه حتفك ، وهلاكك من عينه عز وجل وحجابك عنه (٥١) .

وبالقلب صلاح العبد وفنائه ، فإن انقشعت عنه الظلمات قاد صاحبه إلي بهاء النور الرباني وأبعده عن الشر والشرك والآثام ، وعصمه من كل ذنب ونقره من كل رذيلة وإن عزف في الظلمات عاش صاحبه في الأرض فساداً وضل طريقه" (٥٢) .

لقد ذهب الجيلاني إلي أن الفناء ليس غاية في ذاته وإنما هو الوسيلة التي بها يصل العبد إلي مقام القرب والبقاء بالحق تعالي ، وهو طريق الإبدال والأولياء الذين بدلوا صفاتهم المذمومة بالصفات والأخلاق الحميدة فتبدلت إرادتهم بإرادة الحق تعالي وأصبحوا ليس لهم إرادة إلا إرادة الحق تعالي وفي هذا يقول الجيلاني " فالفناء هو المني والمبتغي والمنتهي وحد ومرد ينتهي إليه سير الأولياء ، وهو الاستقامة التي طلبها من تقدم من الأولياء والإبدال رضي الله عنهم ، أن يفنوا عن إرادتهم ، فتبدل بإرادة الحق عز وجل ، فيزيدون بإرادة الحق أبدا إلي الوفاة ،فلهذا سموا أبدال الله تعالي عنهم (٥٣) .

والمقصود بتبدله الإرادة لدي الإبدال هو أنهم لا إرادة لهم مع الحق تعالي ، وإنما تكون الإرادة للملائكة ، ومن ثم فإن " ذنوب هؤلاء الإبدال أن يشركوا إرادة الحق عز وجل بإرادتهم علي وجه السهو والنسيان وغلبة الحال والدهشة، فيدركم الله تعالي برحمته باليقظة والتذكرة ، فيرجعون عن ذلك ويستغفرون ربهم عز وجل ، إذ لا معصوم عن الإرادة إلا الملائكة ، فالملائكة عُصموا من الإرادة ، والأنبياء عصموا عن الهوى ، وبقية الخلق من الإنس والجن المتكلفين لم يعصموا منهما ، غير أن الأولياء يحفظون عن الهوى ، والإبدال يحفظون عن الإرادة ، ولا يعصمون منهما ، علي معني أنه يجوز في حقهم الميل إليهما في بعض الأحياء ، ثم يتداركهم الله عز وجل باليقظة برحمته (٥٤) .

الركون إلي الإرادة يؤدي إلي الشرك ، لهذا لابد من الفناء عنها ، ولهذا اعتبر الجيلاني أن الشرك ليس في عبادة الأصنام وإنما في متابعة الهوى ولهذا لابد من الالتزام بالأوامر الشرعية " احفظ أبداً أمره ، وأنه أبدا نهيه ، وسلم إليه أبداً مقدوره ، ولا تشركه بشيء من خلقه ،

فإرادتك وهواك وشهواتك خلقه كلها ، فلا ترد ولا تهوي ولا تشته لئلا تكون مشركاً ، قال الله عز وجل "فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً " سورة الكهف : أية ١١٠. ليس الشرك عبادة الأصنام فحسب ، بل هو أيضاً متابعتك لهواك ، وأن تختار مع ربك عز وجل شيئاً سواه من الدنيا وما فيها ، والآخرة وما فيها ، فما سواه عز وجل غيره ، فإذا ركنت إلي غيره ، فقد أشركت به عز وجل غيره ، فأحذر ولا تركن ، وخف لا تأمن ولا تدع شيئاً من ذلك (٥٥) .

فإتباع الهوى ووساوس الشيطان يخرج الإنسان من الإيمان بالله تعالي ، لذا يجب علي العبد عدم الاستماع إليهم ويجب مخالفتهم ، وهذا من باب صدق العبادة ، وفي هذا يقول الجيلاني " فالعبادة كل العبادة في مخالفتك لنفسك وهواك قال تعالي" ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله " سورة ص: أية٢٦"وقال تعالي لداود عليه الصلاة والسلام " أهجر هواك فإنه لا منازع ينازعني في ملكي غير الهوى " والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه ، لما رأي رب العزة في المنام فقال له : كيف الطريق إليك يا بار خدايا ؟ قال أترك نفسك وتعال ، فقال أبو زيد : " فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها (٥٦) .

والفناء عند الجيلاني مثله مثل " معظم الصوفية السابقين والمعاصرين له " أبو حامد الغزالي " ٥٠٥هـ ، " أحمد الرفاعى " ٥٧٨هـ ، " أبو إسحاق الشيرازي وعبدالقاهر الجرجاني " ، له أهمية أخلاقية عظيمة وهي إصلاح حال النفس وتغير الخلق والطبع من الطبع الحيواني إلي الطبع الملائكي ، هذا التغير يثمر في النفس لذة وسعادة ويذكرها بحياتها السابقة قبل أن تحل بالبدن كما يذكر أفلاطون ، ولا تكتمل هذه السعادة إلا بإعدام الخلائق وكأنه لا خلق مع الله تعالي ولا وجود سواه . وفي هذا يقول الجيلاني " الفناء إعدام الخلائق ، وانقلاب طبعك عن الملائكة ، ثم الفناء عن طبع الملائكة ثم لحوقك بالمنهاج الأول ، وحينئذ يسقيك ربك ما يسقيك ، ويزرع فيك ما يزرع" (٥٧) .

التوحيد عند الجيلاني هو الدواء والداء ، وعلي الإنسان أن يبقي به في كل أحواله ومقاماته ، فلا يكون في الباطن غير توحيد الله تعالي ولا قرار بوحدانية والطاعة في الظاهر وإتباع أمره ونهيه فيكون دأب الإنسان وشعاره وهذا هو قيمة الفناء عن السوي ولهذا يخصص المقالة السابعة والسبعون من كتاب فتوح الغيب للحديث عن الفناء عن السوي بقوله :كن مع الله عز وجل كأن لا خلق ، ومع الخلق كأن لا نفس ، فإذا كنت مع الله عز وجل بلا خلق وجدت ، وعن الكل فنيت ، وإذا كنت مع الخلق بلا نفس عدلت وبقيت ومن التبعات سلمت ، وأترك الكل علي باب خلوتك ، وادخل وحدك تر مؤنسك في خلوتك بعين سرك ، وتشاهد ما وراء العيان ، وتزول النفس ويأتي مكانها أمراً لله وقربه" (٥٨) .

وهذا الفناء عن السوي يثمر طمأنينة في القلب وقيل لكل داء بالتوحيد ، وحول هذا المعني يقول : التوحيد بقتل الكل ، كل الدواء في التوحيد

للحق عز وجل ، وفي الأعراض عن محبة الدنيا لا خير فيك حتي تعرف نفسك وتمنعها حظها ، وتعطيها حقها فحينئذ تطمئن إلي القلب ويطمئن القلب إلي السر ، ويطمئن السر إلي الحق عز وجل" [٥٩] .

الفناء هو الحال الذي تضمحل فيه أهواء وأحوال السالكين ، وتنعدم فيه مقامات السائرين إلي الله تعالي والبقاء معه ، ومن ثم فإن الجيلاني لا يخرج في حديثه عن الفناء وأحوال النفس فيه عن دائرة أهل السنة في تصوفه ، حيث وصف أهل التصوف : كما قال سمنون المحب عندما سئل عن التصوف فقال : أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شئ [٦٠] .

التوحيد هو أساس الفناء عند الجيلاني ذلك لأن في التوحيد صفاء القلب وفي عدم التوحيد حجاب عن الخالق بالخلق والأسباب ، ومن ثم فإنه في ذلك يتفق مع ابن عربي الصوفي المتفلسف (٦٣٨هـ) إلا أن ابن عربي طبق ذلك علي قوله الوجود "ولكن الفناء في وجود السوي ، والذي يتحقق به المحب الفاني بأنه ما ثم إلا الله عند ابن عربي لا يحقق التوحيد الذي يتسق ومفهوم الإلهية الصحيحة في الإسلام الذي تصطدم فيه وحدة الوجود حقيقة مع مفهوم التوحيد في الإسلام ، علي الرغم من أن وحدته روحية لا مادية ، وبالرغم من أنه يدرك فعلا أن العبد عبد وأن الرب رب ، والسبب في ذلك أن الموحد الحقيقي عنده لا يكون موحداً حقيقياً ما لم يفن فناء تام في الله وما لم يجمع في توحيده بين التنزيه والتشبيه معا ، وهو الأمر الذي يراه ابن عربي ضرورة ، لأن الحق تعالي قد وصف نفسه في الصورة الظاهرة باليدين والعين ، الأمر الذي يقتضي التشبيه ، وإن كان الدليل العقلي يقتضي التنزيه فلزم أن يجمع الموحدين دليل الشرع والعقل معاً ، ويقول بالتشبيه والتنزيه معاً وهو ما يحب أن يحققه الإنسان الكامل وحده لكونه المخلوق علي الصورة الإلهية [٦١] .

يذهب الجيلاني إلي أن في عدم التوحيد نقص من محبة الله تعالي ذلك لأن التوحيد يقوم علي الفناء عن الأغيار والسوي والبقاء بالحق تعالي ، وفي هذا يقول : فنقص محبة الله في قلبك ، وهو عز وجل غيور لا يحب شريكاً فكف أيدي الغير عنك

بالمواصلة ولسانه عن حمدك وثنائك ورجليه عن السعي إليك كيلا تشتغل به عنه [٦٢].

٣ – الفناء والمقامات والأحوال :

بداية ينبغي أن نذكر أن الجيلاني يجعل الفناء مرافقاً للبقاء بالحق تعالي في كل المقامات والأحوال انطلاقاً من قوله تعالي " ألا إلي الله تصير الأمور" الشورى: أية ٥٣ ، أي إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية وهذا ما أكد عليه بقوله : " يا غلام لا تنظر إلي الخلق بعين البقاء، بل أنظر إليهم بعين الفناء لا تنظر إليهم بعين الضر والنفع ، بل انظر إليهم بعين العجز والذل ، وحد الحق عز وجل وتوكل عليه ولا تهذي فيما قد فرغ ، الدنيا وجميع ما يظهر فيها قد فرغ منه والخلق وجميع ما يتقلبون فيه قد فرغ منه ، قلب

المـؤمن فـارغ مـن هـذا كلـه ، لا سـيما إذا كـان متجرداً عن الأسباب فهو أكد بحاله ، وإن جاءته الأسباب والعيال فيعان عليهم ويعطي القوة علي مقاساتهم ، فقلبه في جميع الأحوال فارغ عما سوي ربه عز وجل ، لا يبرح في غيبته ولا يزول ، لا يطلب منه التغيير والتبديل لأنه يعلم أن الذي قد قضي لا يتغير ، والقسم قد فرغ منه لا يزيد ولا ينقص ، فلا يطلب زيادة ولا نقصانا (٦٣).

ولا يتحقق القرب من الله تعالي إلا بالبعد ومحو الصفات المذمومة والبقاء بالصفات المحمودة من زهد وورع وتوكل وخوف وخشية من الله تعالي ، وفي هذا يقول : يا غلام هؤلاء الذين تعاشرهم في الدنيا للدنيا غداً لا تراهم ، تقطع بينكم كيف لا تقطع بينك وبين أقرانك السوء الذين عاشرتهم في غير الله عز وجل ؟ إن كان ولابد لك من معاشرة الخلق فعاشر المتورعين المتزهدين العارفين العاملين مريدي الحق عز وجل ومراديه ، عاشر من يأخذ منك الخلق ويعطيك قرب الحق عز وجل يأخذ منك الضلال ويقيمك علي الجادة ، يعصب عينيك عن الدنيا ثم يفتحها علي الآخرة.....وتوكل واقعد علي باب العمل ، فإن أخذوا الزكايه ولم يأخذوك لا تبرح من مكانك حتى تيأس من أحد يدعوك إلي عمله ، فحينئذ ألف نفسك في بحر التوكل فتجمع بين السبب والمسبب (٦٤).

ولما كان الزهد هو أول مقام من مقامات الطريق إلي الله تعالي ، فإنه الفناء عن الهوي والنفس وملذات الدنيا وأمانيها وهي بداية الزهد عند الجيلاني ، ولهذا يربط بين الزهد والفناء عن الخلق والهوى برباط وثيق ، وفي هذا يقول "من أراد الآخرة فعليه بالزهد في الدنيا ، ومن أراد الله فعليه بالزهد في الآخرة ، فيترك دنياه لأخرته وآخرته لربه .....وفي الجملة انكشاف الضر ومجيء النفع فليس بزاهد حقاً لأن كل واحد من هذه الأشياء فيه لذة للنفس وموافقة الهوى وراحة الطبع وحب له ، وكل ذلك من الدنيا ومما يحبب البقاء فيها ويحصل السكون والطمأنينة إليها ، فينبغي أن يجاهد في إخراج جميع ذلك عن القلب ... فإذا تم له ذلك زالت الهموم والأحزان من القلب ، والكرب عن الحشا ، وجاءت الراحات والطيب والأنس بالله (٦٥).

أن الاشتغال بالدنيا وعدم الفناء عنها والإعراض عن الآخرة ليس من باب الزهد عند الجيلاني ، إذ أن في الزهد القرب من الحق تعالي ونيل رحمته وجنته ويكون ذلك بالطاعة لأوامره والبعد عن نواهيه ، وفي هذا يقول : وإذا أطعت الله بزهدك في الدنيا أو طلبك دار الآخرة كنت من خواص الله عز وجل وأهل طاعته ومحبته ، وحصلت لك الآخرة ، وهى الجنة ، وجوار الله عز وجل وخدمتك الدنيا فيأتيك قسمك الذي قدر لك منها.....وإذا اشتغلت بالدنيا وأعرضت عن الآخرة غضب الرب عليك ففاتك الآخرة ، وتعاصت الدنيا عليك (٦٦).

فالزهد في معناه مرادف للفناء عند عبد القادر الجيلاني وخصوصاً الفناء في الدرجة الأولي والثانية وهي الفناء عن النفس والهوى والإرادة والأماني وكذلك الفناء عن الأغيار والسوي والأسباب والبقاء بمسبب الأسباب وهو

الحق تعالي ، فالفناء والزهد هدفها الوصول إلي الحق تعالي حتى ينعم العبد بالرضا والأنس بالحق تعالي وإخراج الكل عن قلبه ، وفي هذا يقول الجيلاني " إذا فني العبد عن الخلق والهوى والنفس والإرادة والأماني دنيا وأخري ولم يرد إلا الله عز وجل وخرج الكل عن قلبه وصل إلي الحق ، واصطفاه واحتسباه ، وأحبه وحببه إلي خلقه ، وجعله يحبه ويحب قربه ، ويتنعم بفضله ويتقلب في نعمه وفتح عليه أبواب رحمته ....فيختار العبد حينئذ الله ويدبر بتدبيره ويشاء بمشيئته ، ويرضي برضاه ، ويتمثل أمره دون غيره . ولا يري لغيره عز وجل وجوداً ولا فعلاً، فحينئذ يجوز أن يعده الله بوعد ثم لا يظهر للعبد وفاء بذلك" [٦٧].

فمحو الإرادة والتدبير والبقاء بتدبير الحق تعالي أمراً ذهب إليه رجال التصوف لأن ذلك من باب التوحيد ، وهذا ما ذهب إليه الجيلاني وأبن عطاء الله السكندري الذي يري " أن تدبير الإنسان لنفسه جهل إنما يحيل التدبير إلي الله جل شأنه فيقول " أن الله تعالي هو المتولي لتدبير مملكته علوها وسفلها غيبها وشهادتها [٦٨] ، فالإنسان إذن يتحرك في ظل المشيئة الإلهية ، كما يخضع لما يبدو في الكون مخصصاً بفعل الإرادة الإلهية ، ولا يختار منفصلا تماماً عن الناموس الإلهي ولذلك يجب أن ننظر إلي ما يترتب علي هذه الأمور فيما يحكم الفعل الإنساني ، وفيما يحدث في الكون" [٦٩] ، وقد يعبر عن الفناء بالوصول عند عبد القادر الجيلاني إذ يقول " إذا وصلت إلي الله وقربت بتقريبه وتوفيقه ، ومعني الوصول إلي الله عز وجل خروجك عن الخلق والهوى والإرادة والمني ، والثبوت مع فعله ومن غير أن يكون منك حركة فيك ولا في خلقه بك ، بل بحكمه وأمره وفعله ، فهي حالة الفناء يعبر عنها بالوصول ، فالوصول إلي الله عز وجل ليس كالوصول إلي أحد من خلقه المعقول المعهود[٧٠].

ومقام الزهد من أهم المقامات المصاحبة للفناء والقرب من الله تعالي ، بل هو من ألزم المقامات للفناء ، ولا يكون ذلك إلا بمحو الصفات والأخلاق الذميمة والبقاء بالصفات والأخلاق الحميدة ، كما أن هذا يستلزم زيادة فعل الخيرات والشكر للحق تعالي ، وفي هذا يقول الجيلاني " إذا أنتهي أمرك وقرب الحق عز وجل قلبك إليه ، وصح لك هذا زهدك في الدنيا ورغبك في الآخرة ، لقيت اسمك مكتوباً علي باب قربك من ربك عز وجل فلان ابن فلان من عتقاء الله عز وجل ، فلذلك الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا تنقص ولا يزيد ، فحينئذ يزداد شكرك لربك عز وجل ، وفعلك للخيرات والطاعات بين يديه ومع ذلك لا تترك الخوف من يد قلبك ولا تعجز قدرته وأقرأ قوله عز وجل" يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتب " سورة الرعد : أية ٣٩، وقال تعالي " لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون "سورة الأنبياء : أية ٢٣ [٧١].

فإتباع النفس وشهواتها يوقع الإنسان في المهالك ويخرج الإنسان من طاعة الله تعالي ، وتطفئ نور المشاهدة في القلب . ولهذا ينصح الجيلاني بقوله" يا قوم : إن لم يبلغ كلامي حالكم ، فأسمعوه الإيمان والتصديق ، كلامي وجه للقلوب فأسمعوه بقلوبكم وأسراركم وقد تراوحت

ظواهركم وبواطنكم وتتكسر شوكة نفوسكم وأهوائكم وتطفئ نيران شهواتكم ، أشر ما عليكم الشهوات التي تحبب إليكم الدنيا وتبغض إليكم الفقر وتوقعكم في المهالك" (٧٢) .

فالفناء هو موت لأهواء النفس وشهواتها والبقاء حياة بالحق تعالي ، فالفناء موت والبقاء حياة وهذا ما يؤكده الجيلاني في كتاب " فتوح الغيب" بقوله " ضاق بي الأمر يوما فتحرك في النفس ، فقيل لي : ماذا تريد ؟ فقلت أريد موتا لا حياة فيه وحياة لا موت فيها ؟ فقيل لي : ما الموت الذي لا حياة فيه وما الحياة التي لا موت فيها ؟ قلت الموت الذي لا حياة فيه موتي عن جنسي من الخلق فلا أراهم في الضر والنفع ، وموتي عن نفسي وهوائي وإرادتي و منائي في الدنيا والآخرة فلا أحس في جميع ذلك ولا أجد وأما الحياة التي لا موت فيها : فحياتي بفعل ربي عز وجل بلا وجودي فيه ، والموت في ذلك وجودي معه عز وجل ، فكانت هذه الإرادة أنفس إرادة أردتها منذ عقلت (٧٣).

ويذهب الجيلاني إلي أن النفس الأمارة بالسوء العاصية لربها عز وجل أولي بها أن تترك وتفني عن أهوائها حتى لا تضل عن سبيل الله تعالي وهذا لا يتحقق إلا بالشكر والصبر والموافقة وحسن الظن بالحق تعالي ، ولهذا ينصح مريده بقوله " فعليك بالشكر والصبر والموافقة ، وترك التسخط والتهمة والقيام مع رعونة النفس وهواها الذي يضل عن سبيل الله(٧٤).

وبالزهد في شهوات الدنيا والأعراض عنها بهمهم مخافة الله تعالي ، وكذلك تحقق البقاء بعد الفناء ، وانقلاب العقل قلباً ، والقلب ينعم بمشاهدة الأسرار ، وهذا الزهد والفناء لا يتحقق إلا بدوام المجاهدة والرياضيات العملية حتي تتحول الصفات البشرية إلي صفات ملائكية، وفي هذا يقول الجيلاني " انقلب العقل قلباً وانقلب القلب سراً وانقلب السر فناء ، وانقلب الفناء وجوداً ، أدم عليه السلام والأنبياء كانت لهم شهوات ورغبات ، غير أنهم كانوا يخالون نفوسهم ويطلبون رضا ربهم عز وجل ، آدم عليه السلام اشتهي شهوة واحدة في الجنة ، وذل ذلة واحدة وهو في الجنة ثم تاب ولم يكن له عودة وكانت شهوته محمودة ، فإنه طلب أن لا يفارق جوار الحق عز وجل ، والأنبياء عليهم السلام ما زالوا يخالفون نفوسهم وطباعهم وشهواتهم حتى التحقوا بالملائكة من حيث الحقيقة لكثرة مجاهداتهم ومكابدتهم لأنفسهم ، الأنبياء والمرسلون والأولياء يصبرون ، وأنتم أيضاً وافقوهم في الصبر (٧٥).

إن من صحة التوكل والتوحيد القرب من الله تعالي والبقاء والفناء عن الأغيار والسوي ، فطاعم العبد وشرابه هو قربه من الحق تعالي وهذا هو حال العارفين الذين باعوا الدنيا من أجل الآخرة وزهدوا فيها . وهذا ما أكده الجيلاني بقوله " المؤمن نسي كل شئ وذكر مولاه عز وجل فحصل له قربه والحياة به ومعه صح توكله فلا جرم ، كفاه المهام دنيا وآخرته ، إذ صح توكل المؤمن وتوحيده عامله الحق عز وجل بما عامل به إبراهيم عليه السلام ، يعطيه معناه وحالة لا

لقبه ، .....كن عاقلاً واقنع باليسير من الدنيا حتى يأتيك الكثير من الآخرة ، تناول الأقسام بيد زهدك ، ويكون تناولك علي باب مولاك عز وجل بيد قدرته وفعله ومعه ، لامع الدنيا وبيدها ، ولا علي أبواب السلاطين في صحبة الطبع والهوى والشيطان والعوام . إذا تناولت الدنيا وقلبك علي باب ربك عز وجل تكون الملائكة وأرواح الأنبياء حولك ....القوم عقل قالوا لا تأكل أقسامنا من الدنيا في الطريق ولا في بيوتنا ولا تأكل إلا عنده الزاهدون يأكلون في الجنة والعارفون يأكلون عنده وهم في الدنيا ، والمحبون لا يأكلون في الدنيا ولا في الآخرة طعامهم وشرابهم أنسهم وقربهم من ربهم عز وجل ، رب الدنيا والآخرة ، الصادقون في محبته باعوا الدنيا والآخرة بوجهه وأرادوه دون غيره ، فلما تم البيع والشراء غلب الكرم فرد عليهم الدنيا والآخرة موهبة وأمرهم بتناولهما ، فأخذوهما بمجرد الأمر مع الشبع بل مع التخمة والغني عنهما ، فعلوا ذلك موافقة للقدر وحسن أدب مع القدر ، قبلوا وأخذوا وهم يقولون : " وإنك لتعلم ما نريد " سورة هود :أية ٧٩ [٧٦].

ويؤكد الجيلاني علي أن الزهد مطهر للقلب من الأدناس ، أنه يزيل ويمحوا الحجب والأستار بين القلب والحق تعالي ،ويكون ذلك بترك الاشتغال بالخلق والامتثال لأوامر الشرع ، وهذا كله يثمر طمأنينة في نفس الزاهد ، وحول هذا المعني يقول الجيلاني " تعلم أن قد رضينا بك دون غيرك ، ورضينا بالجوع والعطش والعري والذل والمهانة ، وأن نكون علي بابك مطروحين ، لما رضوا بذلك وقرروا مع نفوسهم الطمأنينة عليه ، نظرا إليهم نظر الرحمة فأعزهم بعد ذلهم وأغناهم بعد فقرهم ومنحهم تقربهم ، تقربهم منه دنيا وآخرة ، المؤمن يزهد في الدنيا فيزيل الزهد وسخ باطنه ودرته وكدره ، فيأتي الآخرة فيسكن قلبه ، ثم يأتي يد الغيرة فتزيلها عن قلبه وتعلمه أنه حجاب عن قرب الحق عز وجل ، فحينئذ يترك الاشتغال بالخلق في الجملة ويمتثل أوامر التسرع ويحفظ حدوده المشتركة بينه وبين العوام ، تنفتح عينا بصيرته ، فيصر عيوب نفسه وعيوب المخلوقات ، فلا يسكن إلي غير ربه عز وجل ، ولا يسمع من غيره ، ولا يعقل عن غيره ، ولا يسكن إلي غير وعده ، ولا يخاف من غير وعيده ، يترك الشغل بغيره ويشتغل به [٧٧] ، وفي موضع آخر يقول " فالقوم لا إرادة لهم ولا اختيار ، بل هم في مجرد أمر الحق عز وجل وفعله وتدبيره وإرادته ... أهل اليقظة رأوا الله عز وجل بقلوبهم فأجتمع شتاتها ، انسكبت فصارت شيئاً واحداً ، تتساقط الحجب بينهم وبينه ، محيت المباني وبقيت المعاني ، تقطعت الأوصال وانخلعت الأرباب ، فلم يبق لهم سوي الحق عز وجل ، لا كلام لهم ولا حركة ولا فرح بشيء حتى يصبح لهم هذا [٧٨].

أما عن ثاني المقامات التي ربطها الجيلاني بالفناء برباط وثيق هو مقام التوبة من الذنوب والمعاصي والهفوات التي تعكر صفو النفس ونقاءها . وفي هذا يقول الجيلاني " من لم يتب إذا أصبح وأمسي فهو من الظالمين " فالتوبة علي وجهين : أحدهما في حق العباد ، والثانية بينك وبين الله تعالي ، فتكون بالاستغفار باللسان

والندم بالقلب والإضمار أن لا يعود علي ما أشرنا إليه يوم القيامة [٧٩].

فالتوبة من الذنوب والآثام من باب العدل وإخراج هموم الدنيا من نفسه ، ولهذا فالناس علي أربع درجات في التوبة أولها :أن ينقطع عن أصحاب الفسق ولا يراهم هيبة من فقس ، ويخالط الصالحين ، والثاني : أن يكون منقطعاً عن كل ذنب مقبلاً علي جميع الطاعات ، والثالث : أن يذهب فرح الدنيا من قلبه ويري حزن الآخرة ، دائماً في قلبه ، والرابع : أن يري نفسه فارغاً عما ضمن الله له ، يعني من الرزق . مشتغلاً بما أمر الله من الطاعة ، فإذا وجدت فيه هذه العلامات كان من الذين قال الله تعالي في حقهم " إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " سورة البقرة : آية ٢٢٢ [٨٠] .

ويذهب الجيلاني إلي أن مقام التوبة ينقسم إلي نوعين مثل ما ذهب ابن عربي (ت٦٣٨هـ)، وابن عطاء الله السكندري (ت٧٠٩هـ) من بعده إلي : أن التوبة ليست رجوعاً عن الذنب أو مجرد الإقلاع عن العاصي والذنوب والمخالفات ، ولكنها توبة القلب عن كل ما سوي الله ، لأن التوبة المشروعة هي توبة العوام عن المخالفات ، وأما توبة الخواص فهي التبري من الحول والقوة بحول الله وقوته ، ولأجل هذا كانت أعلي مراتب التوبة ترك ما سوي الله بالزهد الكامل عن كل ما يشغل عنه من الأسباب [٨١].

ويشبه عبد القادر الجيلاني التوبة والفناء عن الذنوب والآثام ، بحالة قطع الزرع ، فإذا كان القطع ظاهري " الفروع " كانت التوبة من الذنوب الظاهرة وهي توبة العوام ، أما إذا كان القطع من الجذوع كانت توبة الخواص وهي التوبة من الذنوب الباطنة وهي أعلي وأرفع من توبة الذنوب الظاهرة ، وفي هذا يقول " مثال من يتوب عن مجرد الذنوب الظاهرة كمن يقطع حشيش الزرع من فرعه ولا يشتغل بقلعه من أصوله ، فينبت ثانياً لا محالة ، بل أكثر مما ينبت أولاً ، ومثال التواب من الذنوب والأخلاق الذميمة كمن يقطعه من أصوله ، فلا جرم أنه لا يثبت بعده إلا نادراً ، قال تعالي " إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات " سورة الفرقان : أية ٧٠ [٨٢] .

والارتباط وثيق بين التوبة والفناء عند الجيلاني ، لأن التوبة عنده كما عند الصوفية علي نوعين : توبة العوام وتوبة الخواص " فتوبة العوام : أن يرجع من المعصية إلي الطاعة ، ومن الذميمة إلي الحميدة ، ومن الجحيم إلي الجنة ، ومن راحة البدن إلي مشقة النفس بالذكر والجهد والسعي القوي .

وتوبة الخواص : أن يرجع بعد حصول هذه التوبة من الحسنات إلي المعارف ومن المعارف إلي الدرجات ، ومن الدرجات إلي القربة ، ومن القربة واللذات النفسانية إلي اللذات الروحانية ، وهو ترك ما سوي الله تعالي والأنس به ، والنظر إليه بعين

اليقين قال تعالي " واستغفر لذنبك " سورة محمد :أية ١٩ [٨٣] .

ومن ثم فإن الفناء هو توبة النفس من الشهوات وتوبة القلب من الغفلات وكذلك توبة الجوارح من السيئات واللذات .

ويذهب الجيلاني إلي أن الخير كل الخير في ترك الدنيا وشهواتها والشر في الاشتغال والبقاء بها وفي هذا ينصح بقوله " يا غلام إذا دمت علي التوبة والفكر الصحيح تركت ما للدنيا واشتغلت بما للآخرة ، تركت ما للخلق واشتغلت بما للخالق ، تركت الشر وعملت الخير [٨٤] ، فالمداومة علي التوبة ودوام المحو والفناء هو حال الإبدال والعارفين الذين تخلوا عن الحول والقوة مع الله تعالي وهم في الدرجة الثالثة من الفناء ، " ويسميها الجيلاني حالة حق الحق " وإن كنت في حالة حق الحق عز وجل وهي حالة المحو والفناء . وهي حالة الإبدال والمنكسري القلوب لأجل الحق عز وجل ، الموحدين العارفين ، أرباب العلوم والعقل ، السادة الأمراء الشحن خضراء الخلق ....فإتباع الأمر فيها بمخالفتك إياك بالتبرى من الحول والقوة ، وألا يكون لك إرادة وهمة في شئ ألبته دنيا وعقبي ، فتكون عبد الملك لا عبد المُلك ، وعبد الأمر لا عبد الهوي ، كالطفل الرضيع مع الظئر ، والميت " الغسيل " مع الغاسل ، والمريض المقلوب علي جنبيه بين يدي الطبيب، فيما سوي الأمر والنهي [٨٥] .

ومقام الصبر من أهم المقامات المرتبطة بالفناء عند الجيلاني ، فمخالفة أهواء النفس ومخصصماتها تثمر فيها الصبر والرضا بالمقادير ، وتحقق القرب من الله تعالي ، لأن ذلك حجاب بين النفس والحق تعالي . وفي هذا يقول " فإذا نصرت الله عز وجل في مخالفة نفسك وهواك بترك الاعتراض عليه ، والتسخط لفعله فيك ، وكنت خصمها لله علي نفسك سيافاً له عليها ، والتسخط لفعله فيك ، كلما تحركت بكفرها وشركها ورعونتها جزرت رأسها بصبرك وموافقتك لربك والطمأنينة إلي فعله ووعده والرضا بهما كأن الله عز وجل لك معينا وناصرا [٨٦].

والصبر عند معظم الصوفية مرتبط بنزول البلاء ، وعند نزول البلاء يعتبر الصبر هو البداية والأدنى ، والصبر هو الأعلى ثم يلي الصبر الرضا والموافقة ثم الفناء ، أي أن الفناء عند الجيلاني هو قمة الصبر ، وبهذا الرأي كان يقول الجيلاني " أحسن الأدب ، تصبر عند البلاء إن ضعفت ، ثم أصبر إن ضعفت عن الرضا والموافقة ، ثم أرضي ووافق إن وجدت ، ثم أفن إذا فقدت" [٨٧].

ويقول الجيلاني في موضع آخر " إذا ابتلي العبد ببلية تحرك أولاً في نفسه بنفسه . فإن لم يتخلص منها استعان من الخلق ، فإن لم يجد في ذلك خلاصاً رجع إلي ربه بالدعاء والتضرع والثناء ، ما دام يجد نفسه نصره لم يرجع إلي الخلق ، وما دام يجد به عند الحق نصره لم يرجع إلي الخلق ، ثم إذا لم يجد عند الخالق نصره استطرح بين يديه مديماً للسؤال والدعاء والتضرع والثناء والافتقار مع الخوف والرجاء ، ثم يعجزه الخالق عز وجل عن الدعاء ولم يحبه حتى ينقطع

عن جميع الأسباب ، فحينئذ ينقذ فيه القدر ويفعل الفعل ، فيغني العبد عن جميع الأسباب والحركات ، فيفني روحاً فقط ، فلا يري إلا فعل الحق حيث لا فاعل في الحقيقة إلا الله (٨٨).

فبالصبر يترقي العبد إلي مقام الرضا والموافقة للحق تعالي ، ثم الفناء في الأفعال وهو حال الإبدال والعارفين ، ومن ثم يصير الصبر هو أول طريقي الفناء عن النفس والأغيار والسوي ، وفيه السلامة في الدنيا الآخري ، وفي هذا يقول الجيلاني " فالصبر رأس كل خير وسلامة دنيا وأخري ، ومنه يترقي المؤمن إلي حالة الرضا والموافقة ، ثم الفناء في أفعال الله عز وجل حالة البدليه والغيبة ، فأحذر أن يتركه فيخذلك في الدنيا والآخرة ويفوتك خيرهما (٨٩).

والصبر يكون علي البلاء والرضا والشكر في حالة النعمة ، ولا تخلوا حالته الإنسان من إما حالة بلاء أو حالة نعمة ، ومن ثم فإن هناك ارتباط وثيق بين المقامات الثلاثة الصبر والرضا والفناء ، وفي هذا يقول الجيلاني " لا تخلو حالتك إما أن تكون بلية أو نعمة ، فإن كانت بلية فتطالب فيها بالتصبر وهو الأدنى ، والصبر وهو أعلي منه ، ثم الرضا والموافقة ، ثم الفناء وهو للإبدال ، وإن كانت نعمة فتطالب فيها الشكر عليها (٩٠) .

وفي موضع أخر ينصح الجيلاني بقوله " فعليك بالشكر والصبر والموافقة ، وترك التسخط والتهمة والقيام مع رعونة النفس وهواها الذي يضل عن سبيل الله (٩١) ، فالتبري من الحول والقوة وعدم الاشتغال بالخلق في الظاهر والباطن من تمام الصبر والرضا عند الجيلاني ، وفي هذا يقول "فلا تشغلن بالخلق في الظاهر ولا في الباطن ، فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، بل الزم الصبر والرضا والموافقة والفناء في فعله عز وجل ، فإن حرمت ذلك كله فعليك بالاستغاثة إليه عز وجل والتضرع والاعتراف بالذنوب والتظلم من شؤم النفس ....والاعتراف له بالتوحيد والتبري من الشرك ، وطلب الصبر والرضا والموافقة إلي حين يبلغ الكتاب أجله(٩٢).

فالصبر عند الجيلاني هو حبس النفس عن الشكوى لغير الله تعالي في حالة نزول البلاء وهذا هو الصبر الحقيقي المثمر لمحبة الله تعالي، ولهذا اقترن الصبر من الإنسان بمحبة الله تعالي، وفي هذا يقول د/ أحمد الجزار: واقتران الصبر من الإنسان بمحبة الله ، يرجع في أصله لحقيقة مقام البر عند ابن عربي ، لأنه من المقامات المشروطة بشرط البلاء ، بحيث إذا كان البلاء والمحنة كان لمقام الصبر معناه وحقيقته عنده ، فإذا انعدم الشرط زال المقام ، فإذا عاد البلاء مرة أخري وصبر الإنسان علي البلاء ، فإنه حينئذ يكون في مقام الصبر وفي هذه الحالة يحب الله الإنسان إذا ما وقع عليه البلاء فصبر ولم يشك لغير الله تعالي ، لأن الصبر الحقيقي لا يكون إلا بحبس النفس عن الشكوى لغير الله في وقت نزول البلاء أو الشدة ، فإذا ما تحقق العبد بهذا المعني ففي هذه الحالة يصير محبوباً من الله(٩٣).

فالصبر هو التباعد عن المخالفات والقرب من الحق تعالي وعدم إظهار الشكوى عند نزول

البلاء ، وهذا ما أكد عليه الجيلاني بقوله عن الصبر " هو الفناء في البلوي بلا ظهور الشكوى " وقيل : الصبر هو الثبات مع الله عز وجل ، وتلقي أذية بلائه بالرحب والسعة(٩٤) .

ومقام الرضا أيضاً من المقامات ذات الصلة الوثيقة بالفناء عما سوي الله تعالي عند الجيلاني ، شأنه شأن ما سبق من المقامات ،إذ يقول الحق تعالي" رضي الله عنهم ورضوا عنه " المائدة أية: ١١٩"، والرضا بالقضاء هو أن يستوي عندك ما تحب وما تكره من قضاء الله عز وجل ، ولهذا قيل أن الرضا هو " ترك الاختيار وقال بعضهم : أهل الرضا هم الذين قطعوا عن قلوبهم في الأصل الاختيار ، فهم لا يختارون شيئاً من الأشياء مما تريد أنفسهم ، ولا شيئاً مما يريدون به الله ، ولا يسألونه ولا يطالعون حكماً قبل نزوله ، فإذا وقع حكم من الله حيث لا يتشوقون إليه ولم يطالعوه رضوا به فأحبوه وسروا به ... وأقل ما في الرضا أن ينقطع طمعه عما سوي الله عز وجل ، وقد ذم الله عز وجل الطمع في غيره عز وجل (٩٥) .

وفي أكثر من موضع يؤكد الجيلاني علي ارتباط الفناء والرضا بالمقادير ، إذ يقول " فلا يكون لنفسك وهواك وإرادتك ... ولا رأي متبع إلا إتباع أمر الرب عز وجل ، والوقوف معه ، والرضا بقضائه ، بل الفناء في قضائه وقدره ، فتكون عبد الرب وأمره ، لا عبد الخلق وأرائهم ، فإذا استمر الأمر فيك كذلك ، ضربت حول قلبك سرادقات الغيرة وخنادق العظمة وسلطان الجبروت ....كيلا يخلص الخلق إلي القلب من الشيطان والنفس والهوى ، والإرادة والأماني الباطلة ، والدعاوى الكاذبة الناشئة من الطباع والنفوس الأمارة بالسوء والضلالات الناشئة من الأهواء (٩٦).

إن مقام التوكل مرتبط برباط وثيق بالفناء عن السوي والأغيار، ويشبه العبد في توكله بالطفل الرضيع الذي لا يعرف شيئاً يلجأ إليه سوي ثدي أمه ، وفي نفس الوقت أكد الجيلاني علي ضرورة الأخذ بالأسباب وعدم التعلق بها حتى لا يصبح العبد متواكل ومتكاسل ، وفي هذا يقول " المتوكل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمه ، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلي ربه عز وجل ... وقيل التوكل الثقة بما في يد الله عز وجل ، واليأس مما في أيدي الناس (٩٧) .

ولما كان الفناء في الدرجة الأولي منه ترك أهواء النفس وشهواتها وكذلك ترك تدبيرها، والفناء في الدرجة الثالثة هو التبري عن الحول والقوة والبقاء بالحق تعالي ، فإن التوكل مرتبط بالفناء في كل درجاته ، إذ يجب علي العبد أن يكون متوكلاً علي الله تعالي في كل أحواله ومقاماته . أي طوال الوقت ، فلا يكون متوكلاً في وقت دون الآخر ، وهذا ما أكد عليه صوفية القرون الأولي تأخذ به عبد القادر الجيلاني ، إذ يستشهد بقول ذو النون المصري عن التوكل (ت٢٤٥هـ) (٩٨)، " سأل رجل ذو النون فقال : التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع عن الحول القوة ، هو خلع الأرباب ، وقطع الأسباب ، فقال له السائل زدني ، فقال : إلقاء النفس في العبودية

وإخراجها من الربوبية ، وقال أيضاً : هو انقطاع المطامع ، وأما الحركة بالظاهر التي هي الكسب بالسنة فلا تنافي توكل القلب وهو تحقيق الإيمان ، ممن أنكر الكسب فقد أنكر السنة ، ومن أنكر التوكل فقد أنكر الإيمان(٩٩).

حال الوصول من أهم الأحوال المرتبطة بالفناء عند الجيلاني ، والوصول هو وصول المعرفة بالله وعن الله تعالي بالقرب منه وخروج الهوى منه ، والثبوت مع إرادة الله تعالي ، وفي حال الوصول طمأنينة العبد وعدم خوفه وفزعه في حال المنع والعطاء ، وفي هذا يقول الجيلاني " ارحل من الخلق إلي الخالق ، ومن الكون إلي المكون ، إذا وصلت إلي الله تعالي فقربت منه بتقريبه وتوفيقه ، ومعني الوصول إلي الله عز وجل خروجك عن الخلق والهوى والإرادة والمني ، والثبوت مع فعله عز وجل وإرادته تعالي ، من غير أن يكون منك حركة فيك ولا في خلقه بك ، بل بحكمة وأمره وفعله ، فهي حالة الفناء يعبر عنها بالوصول ، فالوصول إلي الله عز وجل ليس كالوصول إلي أحد من خلقه المعقول المعهود " ليس كمثله شئ وهو السميع البصير " سورة الشورى : أية ١١ (١٠٠) ، وفي أكثر من موضع يقول الجيلاني (فإذا وصلت إلي الحق " عز وجل " فكن آمناً أبداً ممن سواه عز وجل ، فلا تري لغيره وجوده ألبته ، لا في الضر ولا في النفع ، ولا في العطاء ولا في المنع ، ولا في الخوف ولا في الرجاء ، بل هو عز وجل أهل التقوى وأهل المغفرة (١٠١) .

وحال الوصول يعني حال الأنس بالله تعالي ، أي أنس القلب بالله تعالي وهي حالة يتطابق فيها الصفات الطبيعية مع الصفات الملائكية للنفس البشرية ، وفي هذا يقال أن " الصوفي" المتأنس " أو الواصل إلي مرتبة " تأنيسه " لا يستطيع أن ينظر إلي نفسه كواقعه منفصلة عن النظام الإلهي في لحظات الإشراق الصوفي ، تلك اللحظات التي يتداخل فيها كلا النظامين الطبيعي والإلهي – بل هو يدرك إدراكاً تاماً أنه لا سبيل إلي الاهتداء إلي الحقيقة إلا عن طريق النظر إلي أعماق ذاته ، أو التأمل في تلك اللحظة الأزلية للتجربة الإلهية التي هي باطنه فيه (١٠٢).

وفي حال الفناء يتلاشى الإحساس بالزمان فيحدث تداخل الصفات البشرية في الصفات الملائكية أو بمعني أخر تختفي الصفات البشرية وتستتر وتظهر الصفات الإلهية علي الواصل وهذا ما يسمي دورة الكمال الروحي " عندما يلتقي الإنسان كنظام طبيعي بمستوي" إنسانيته " كنظام إلهي أو عندما يصل الإنسان إلي أعلي ذروة الكمال الروحي ، فإن كلا النظامين يتداخلان أو بمعني آخر يفصح النظام الإلهي عن تعلقه في النظام الطبيعي ، كما يظهر الإنسان كنظام طبيعي وقد أوتي كل القوي والملكات التي تربط بينه وبين كماله الإلهي المودع فيه أزلاً (١٠٣) .

أما عن وصف حال القلب الواصل إلي مرتبة تأنيسه " الأنس بالله تعالي " هو ذلك القلب المتبوع ولأنه يحوي في داخله صورة العالم ، كما يعكس العديد من معانيه وهو إلي جانب هذا وذاك

، محل نظر الحق ومنصة تجليه ومهبط أمره ومنزل تدليه ... وهكذا يظهر معني القلب بشكل حضاري تماماً ذلك أنه هنا أصبح يعني الانقلاب إلي الحق ... وصرف وجه " الهمة " عن أمور الدنيا وظواهرها إلي الحقائق وبواطن الأمور ، وانقلاب القلوب يكون بتزكيتها مما ينطبع فيها من تشتت وتفرق وانحطاط إلي العوائد والطبائع ، وتكون التزكية علي قدر ما يعلق بالقلوب ، وعلي قدرها يتمكن منها ويصدها عن التوجه إلي الحق جل شأنه يقول الجيلاني ، وعلي قدر تمكن الطباع من قلبه – يعني قلب السالك تكون التزكية ، فإن كان ممن لا تتمكن فيه البشريات والأمور العاديات كل التمكن فإنه يتزكى بأقل القليل والأخر الذي تمكنت منه الطبائع والعاديات – يحتاج إلي السلوك الشديد وقوة المجاهدات والمخالفات ، فهذا علي قدر قوة سلوكه في الطريق ودوام مخالفته لنفسه يكون تزكية وصفاء علي قدر ضعف عزائمه في ذلك (١٠٤) .

وإذا كان حال الأنس بالله تعالي يعني الوصول إلي الله تعالي عند الجيلاني شأنه في ذلك شأن كل رجال التصوف فإنه يتمتع في حال الوصول هذا بالتجلي الإلهي نتيجة لغياب اللطائف البدنية ، كما أستخدم بعض المتصوفة لفظ السفر أكثر في مؤلفاتهم بدلاً من لفظ الفناء ومن ثم أصبحت كلمة السفر ترادف كلمة الفناء عندهم ، وغايتهم الوصول إلي أقصي درجة الكمال ، وفي هذا يقول دكتور ياسين " وأما الترقي في السفر فيتم علي أربعة مراتب :–

تبدأ المرتبة الأولي منه عندما يتهيأ القلب للسفر بالمجاهدة والذكر ، فيقطع بهذه الوسائل كل صلة تربطه بوجوده الإضافي المتوهم أو الوجود الجسماني .

وأما المرحلة الثانية فتبدأ عندما يتحقق السالك بالصفات الإلهية بعد أن سار إلي الله بأفعاله في مقام النفس وصفاتها ، وبأسمائه في مقام القلب وصفاته ، وبذاته في مقام السر ، وهو السير في الحق بالحق .

ويبدأ السفر الثالث بفراغ المسافر من وجوده بالعرض ووجوده بالماهية معاً ، والتحقق بالوجود الحقيقي في العين العلمية ، حيث لا أين ولا زمان ، وحيث لا أنت ولا أنا بل أنا وأنت الكل في هو هو ، وهذا مقام أحدية الجمع والوجود .

والسفر الرابع هو البقاء بعد الفناء ، وهو شهود المسافر الحق المتجلي بالذات والأسماء والصفات وهو الرجوع عن الحق في الحق إلي الحق في الخلق (١٠٥) .

ومما سبق يتضح لنا أن الفناء عند الجيلاني كغيره من الصوفية المسلمين ليس غاية في حد ذاته ، ومن ناحية أخري ليس كذلك حالة سلبية ترمي إلي أمانة الذات وانعدامها بالكلية كما هو الحال في النرفانا أو تعاليم الفيدانتا الهندية ، وإنما هو حالة شعورية تتضمن نفس الشعور بالوجود الذاتي بغيه شهود الوجود الإلهي ، وحينئذ فالفناء وسيلة للمعرفة الإلهية(١٠٦) .

الفناء عند الجيلاني من أهم الأحوال التي لا تنفصل عن مقامات الطريق إلي الله تعالي ،

ودليلنا في ذلك قوله " فإذن ينقطع عن قلبك كل إرادة وكل شهوة ولذة ومطلب ومحبوب ، فلا يبقي في قلبك سوي إرادته عز وجل [١٠٧] ، ولا يكون هذا الفناء غاية ومطلب في حد ذاته وإنما هو وسيلة للوصول إلي الحق تعالي ، والخروج من المعهود إلي المشروع بشرط حفظ الحدود مع الحق تعالي وإسقاط التدبير " فتفني عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك ، فلا يكون في باطنك غير توحيد الله تعالي ، وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته مما أمر ونهي ، فيكون هذا دأبك وشعارك ودينارك في حركتك وسكونك ورضائك ، وصحتك وسقمك وأحوالك كلها [١٠٨] .

ولعلي من أهم الأحوال المرتبطة بالفناء عند الجيلاني حال الحب لله تعالي وهذا من باب العبودية والرضا من الله تعالي ، إذ أن الاشتغال وتعلق بغير الله تعالي تقص من محبة الله تعالي وشرك به ، وعلي الصوفي الفناء عن الأغيار والسوي والبقاء بالحق تعالي حتى ينال محبته وذلك من خلال الالتزام بالطاعات والعبادات والبعد عن النواهي وفي هذا يقول الجيلاني في المقالة الثلاثة والخمسون في طلب الرضا من الله والفناء به تعالي : اطلبوا من الله عز وجل الرضا أو الفناء ، لأنه هو الراحة الكبري والجنة العالية المنفردة في الدنيا ، وهو باب الله الأكبر وعلة محبة الله لعبده المؤمن ، فمن أحبه الله لم يعذبه في الدنيا والآخرة في اللحوق بالله عز وجل والوصول إليه ، ولا تشتغلوا بطلب الحظوظ ..... فالاشتغال بها شره وحرص وشرك من باب العبودية والمحبة الحقيقية ، لأن الاشتغال بغير الله عز وجل شرك [١٠٩] ، كما يذهب الجيلاني أن محبة الله تعالي لا تكون قيبل الصدفة والحظ وإنما تكون بالفناء عما سواه والبقاء به والإقرار بعبوديته وهذا ما أكده بقوله : وطالب الحظ ليس بصادق في محبته وولايته فمن احتال مع الله غيره فهو كذاب وطالب الغوض علي عمله غير مخلص [١١٠] .

ويذهب الجيلاني إلي أن الفناء ليس بإرادة العبد وإنما هو فضل ومنه من الحق تعالي علي عبده حتى ينعم بالمعارف والأسرار والمشاهد الإلهية ودليلنا في ذلك قول الجيلاني نفسه : " أفني عن الخلق بإذن الله تعالي ، وعن هواك بأمر الله تعالي ... وعن إرادتك بفعل الله تعالي ، وحينئذ تصلح أن تكون وعاء لعلم الله تعالي ، فعلامة فنائك عن خلق الله تعالي انقطاعك عنهم وعن التردد واليأس مما في أيديهم ، وعلامة فنائك عن هواك ترك التكسب والتعلق بالسبب في جلب النفع ، ودفع الضر [١١١].

كما يذهب الجيلاني إلي أن الفناء والمحو لا يكون إلا بالالتزام بالأوامر والنواهي الإلهية في الظاهر والباطن وفي كل المقامات والأحوال وأن الصوفي لا يترقي من مقام إلي مقام أو من حال إلي حالا إلا من خلال الالتزام في كل المقامات بالفناء والمحو ، فناء يتبعه بقاء للحق تعالي ، مما سبق يتضح لنا أن الجيلاني يبرز قيمة الفناء من خلال الناحية الأخلاقية والناحية النفسية التي تثمر استقراراً في النفس الإنسانية وتحقق لها الوصول إلي الكمال .

والآن بعد أن انتهينا من دراسة موضوع الفناء عند عبدالقادر الجيلاني وما ينطوي عليه من معاني وعلاقته بالتوحيد وأحكام الشريعة والمقامات والأحوال ، وجب علينا أن نعرض أهم النتائج التي توصلنا إليها في بحثنا هذا ....

١- يبدو مما سبق أن الفناء عند عبد القادر الجيلاني ليس مطلوبا لذاته ، وأنما هو وسيلة يتحقق من خلالها العبد الفاني بمفهوم التوحيد، وتحقيق العبودية الكاملة لله تعالي.

٢- أن الإسلام ما هو إلا عقيدة وسلوك ولا يمكن الوصول إلي عقيد التوحيد إلا من خلال السلوك الحسن ، فكما لو أن الفناء سلوك والتوحيد عقيدة وهما وجهان لا ينفك أحدهما عن الأخر ، وهذا من تمام الإيمان ، فلا يصح التوحيد بدون الفناء عن الأغيار والسوي والبقاء بالحق تعالي أو الفناء عن الأسباب والتعلق بمسبب الأسباب .

٣- حقيقة التوحيد وعلاقتها بالفناء تقوم علي التخلي والحلي ، والصوفي لا ينعم بالمعارف والأسرار الإلهية إلا بالفناء عن نفسه وأهوائها وكذلك الفناء عن الأغيار والسوي والبقاء بالحق تعالى .

٤- الوصول يثمر القرب من الله تعالى ، والوصول يعني وصول في المعرفة بالله وعن الله تعالي بالقرب منه والرضا بالقضاء والقدر، وأن البقاء بالصفات المحمودة والفناء عن الصفات المذمومة من شروط القرب من الله تعالي .

٥- أن حرية الصوفي في طاعته للأوامر والنواهي الإلهية ، وأن يترك أرادته لإرادة الله تعالي وهذا من تمام العبودية لله تعالي .

٦- أدرك الجيلاني مدى الأهمية النفسية للفناء عن السوي والبقاء بالحق تعالي ، إذ أن الفناء فيه ترقيق ولطف القلب وصرفه عن القسوة ونقائه من الأحقاد والوساوس وغيرها من الصفات المذمومة .

٧- كما أن الفناء عند الجيلاني ينطوي علي قاعدة أخلاقية أيضا تحث الفاني علي الالتزام بآداب الشريعة ، وهذه القاعدة تساعد علي التمتع بالكمال الأخلاقي و تكوين شخصية سليمة بوضع يقبله المجتمع والدين.

٨- لقد ربط الجيلاني بين حال الفناء والمقامات والأحوال ، فالصوفي لا يتحقق له مقام من المقامات إلا إذ ألتزم بالفناء والمحو وما يترتب عليه من بقاء وصحو ، أي الفناء عن الصفات البشرية والبقاء بالصفات الملائكية .

٩- من أهم الأحوال المرتبطة بالفناء عند الجيلاني حال الحب لله تعالى وهذا من باب العبودية والرضا من الله ، إذ أن الاشتغال وتعلق القلب بغير الله نقص من محبة الله تعالي وشرك به .

١٠- من أهم المقامات التي ربط بينها وبين الفناء مقام الصبر وهو ما يعنى التباعد عن المخالفات والقرب من الله تعالى وعدم إظهار الشكوى عند نزول البلاء ، أما عن مقام الزهد فهو من أهم المقامات المصاحبة للفناء والقرب

من الله تعالى ، بل من ألزم المقامات للفناء ولا يكـون ذلـك إلا بمحـو الصـفات والأخـلاق الذميمـة والبقـاء بالصـفات والأخـلاق الحميـدة وهـذا يسـتلزم زيـادة فعـل الخيـرات والشـكر لله تعالي .

الهوامش

(١) عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ، المكتبة الأزهرية للتراث ٢٠٠٨م ، ص٣ ، وأنظر الجيلاني : فتوح الغيب ، مطبعة الحلبي ، الطبعة الثانية ١٩٧٣م ،ص٣ ، وأنظر الجيلاني : في الباطن والظاهر المسمي جلاء الخاطر ، تحقيق خالد الزرعي وعبد الناصر سري ، دار ابن القيم ، الطبعة الأولي ١٩٩٤م ، ص١٠وانظر خير الدين الزركلي : الأعلام، دار العلم للملايين بدون تاريخ ، جـ٤ ، ص٤٧، وانظر الجيلاني : سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار ، تحقيق محمد عدنان الزرعي ، محمد غسان عزقول ، دار السنابل ١٩٩٣م ، ص١٩-٣٢ (، إذ نشأ الجيلاني في أسرة كريمة جمعت التقوى ، فقد كان والده أبو صالح موسي علي جانب كبير من الزهد . وكان شعاره مجاهدة النفس ، حيث ولد الجيلاني في منطقة جيلان بالعراق جنوب بغداد ، وعبد القادر الجيلاني هو أبو محمد عبد القادر بن موسي بن عبد الله).

(٢) عبد القادر الجيلاني : في الباطن والظاهر المسمي جلاء الخاطر، ص ١٢.

(٣) المصدر السابق : ص١٣ وانظر عبد القادر الجيلاني : رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلي الله ، تحقيق محمد غسان عز قول ، دار السنابل الطبعة الثانية ١٩٩٤م ، ص١١-٢٠.

(٤) المصدر السابق : ص١٣، وانظر الجيلاني: الطريق إلي الله ، ص٢١.

(٥) المصدر السابق : ص١٣وانظر الجيلاني : الطريق إلي الله ، ص٢١.

(٦) عبد القادر الجيلاني : الطريق إلي الله ، ص٢٢.

(٧) عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب ، مطبعة الحلبي ١٩٧٣م ، ص١٧٩-١٨٤ وانظر عبد القادر الجيلاني : السفينة القادرية ، ص ٥ وانظر عبد الوهاب الشعراني : الطبقات الكبري المسماة بلواقح الأنوار ، وبهامشه كتاب الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، مكتبة صبيح ، القاهرة ١٣٤٣هـ ، جـ١، ص١٤٠، وانظر أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلي التصوف الإسلامي ، دار الثقافة ١٩٧٤م . أحمد عبد الله اليظي : دراسة في الفرق والطوائف الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م ، ص٣٧٥ ، وانظر الطريق إلي الله صـ ١٣، ص٢٢-٢٣ وانظر الجيلاني: السفينة القادرية ، تعليق عبد الجليل عبد السلام ، منشورات محمد علي

بيضون ، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولي ٢٠٠٢م ، ص٥-٦ وبه كتاب غبطة الناظر في ترجمة الشيخ عبد القادر ، تأليف ابن حجر العسقلاني ، تعليق عبد الجليل عبد السلام ، ص١٩- ٤٦ ، سعيد بن مسفر القحطاني : الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الاعتقادية والصوفية ، ص٧٦. عبد القادر الجيلاني : كتاب سر الأسرار ، ص٢ ،(ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه علي يد أبي سعيد المخزمي الحنبلي ، وكان قد بني مدرسة مفوضها إلي الشيخ عبد القادر ، وتوفي ببغداد سنة ٥٦١هـ ، وله تسعون سنة ودفن بالمدرسة التي كانت له ، ولقد كان الجيلاني سلفي العقيدة علي مذهب الإمام أحمد ابن حنبل ، وأكبر دليل علي ذلك هو أنه أسلم علي يديه ما يزيد علي خمسة ألاف من اليهود والمسيحيين ، وقال عنه الشعراني (عبد الوهاب) طريقته التوحيد وصفا وحكما وحالاً وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً ، وقال عنه ابن السمعاني : إمام الحنابلة وشيخهم في عصره ، فقيه صالح – كثير الذكر دائم الفكر سريع الدمعة ، وقال عنه محيي الدين بن عربي : كان عدلا قطب وقته) .

(٨) عبد القادر الجيلاني : الطريق إلي الله ، ص١٣-١٥ وانظر عبد القادر الجيلاني : آداب السلوك والتوصل إلي منازل الملوك ، تحقيق محمد عتمان عزقول ، وتقديم محمد زكريا الزعيم ، دار السنابل الطبعة الأولي ١٩٩٥م ، ص٢٩-٣٠، وانظر الجيلاني : سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار ، تحقيق محمد عدنان الزرعي ومحمد غسان عزقول ، دار السنابل ١٩٩٣م ، ص٢١-٢٣.

(٩) عبد القادر الجيلاني : آداب السلوك والتوصل إلي منازل الملوك ، ص١٠-١١، سعيد بن القحطاني : الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراؤه الإعتقادية والصوفية ، مكتبة المدينة المنورة ، الطبعة الأولي ١٩٩٧م ، ص٧٦، وانظر أبو الوفا النفتازاني : مدخل إلي التصوف الإسلامي ، ص٢٨٧- ص٢٨٨ وانظر الجيلاني : آداب السلوك ، ص٣٤.

(١٠) أبو الوفا التفتازاني : مدخل إلي التصوف الإسلامي ، ص١٣٢.

(١١) إبراهيم ياسين : حال الفناء في التصوف الإسلامي ، ص١٥-١٦.

(١٢) المصدر السابق : ص١٧.

(١٣) عبد القادر الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ، ص١٨٩.

(١٤) عبد القادر الجيلاني : آداب السلوك والتوصل إلي منازل الملوك ، ص١٠-١١، وانظر الجيلاني : الغبية لطالب طريق الحق – تقديم محمد خالد عمر ، مطبعة دار إحياء التراث العربي ١٩٩٦، جـ١ ، ص٢٠١٧.

(١٥) عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف ، مكتبة محمد علي صبيح ، ١٩٧٢م ، ص٦١.

(١٦) إبراهيم ياسين(دكتور) : حال الفناء في التصوف الإسلامي ، دار المعارف ١٩٩٩م ، ص٥٥-٥٦.

(١٧) المصدر السابق ، ص٦١.

(١٨) عبد القادر الجيلاني : آداب السلوك والتوصل إلي منازل الملوك ، ص٥٤.

(١٩) أحمد الجزار (دكتور) : الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة ١٩٩٠، ص١٤٥.

(٢٠) أحمد الجزار (دكتور): الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي ، ص١٧٩-١٨٠.

(٢١) إبراهيم ياسين (دكتور) : حال الفناء في التصوف الإسلامي ، ص ٣٢.

(٢٢) المصدر السابق : ص٣٢.

(٢٣) الجيلاني : في الظاهر والباطن المسمي بجلاء الخاطر ، ص٦٩ .

(٢٤) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١٦٩ .

(٢٥) المصدر السابق : ص١٧٠ .

(٢٦) المصدر السابق : ص١٧٠.

(٢٧) المصدر السابق : ص١٣٧ .

(٢٨) المصدر السابق : ص١٢٩ .

(٢٩) الجيلاني : رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلي الله ، ص٣١ .

(٣٠) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١٣- ١٥ ، وانظر آداب السلوك ، ص٥٦ .

(٣١) المصدر السابق : ص٧٤ .

(٣٢) المصدر السابق : ص٩٩ .

(٣٣) المصدر السابق : ص٩١ .

(٣٤) المصدر السابق : ص٩٨- ٩٩ .

(٣٥) المصدر السابق : ص٣٣.

(٣٦) الغزالي (أبو حامد) : روضة الطالبين وعمدة السالكين ، تصحيح محمد بخيت ، دار الكتب ١٩٣٩م ، ص ١٨٢.

(٣٧) المصدر السابق : ص٧٠.

(٣٨) إبراهيم ياسين (دكتور): حال الفناء في التصوف الإسلامي ، ص١٩.

(٣٩) عبد القادر الجيلاني : فتوح الغيب ، مطبعة الجلي ١٩٧٣م ، ص١٢ وانظر آداب السلوك ، ص٥٦.

(٤٠) إبراهيم ياسين (دكتور) : حال الفناء في التصوف الإسلامي ، ص١٩

(٤١) آداب السلوك : ص٧٤.

(٤٢) المصدر السابق : ص٥٨.

(٤٣) إبراهيم ياسين (دكتور) : مشكلات التصوف الفلسفي والفلسفة الروحية في الإسلام، بدون ناشر ١٩٩٠م ، ص١٠٨.

(٤٤) المصدر السابق : ص٥٥.

(٤٥) الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ، ص٢٥٦ .

(٤٦) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١٣٣ .

(٤٧) الجيلاني : في الظاهر والباطن المسمي بجلاء الخاطر ، ص٥٩- ٦٠ .

(٤٨) المصدر السابق : ص١٨٥ .

(٤٩) المصدر السابق : ص٧٦ ، ١٨٤ .

(٥٠) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١٢١ .

(٥١) المصدر السابق : ص١١٧ .

(٥٢) المصدر السابق : ص٥٩.

(٥٣) المصدر السابق : ص٩٢.

(٥٤) المصدر السابق : ص٥٨ وانظر فتوح الغيب ، ص١٥.

(٥٥) المصدر السابق : ص٥٨.

(٥٦) المصدر السابق :ص٦٠.

(٥٧) المصدر السابق : ص٦٦-٦٧.

(٥٨) فتوح الغيب : ص١٧٠.

(٥٩) المصدر السابق : ص١٦٩-١٧٠.

(٦٠) الجيلاني : في الباطن والظاهر والمسمي جلاء الخاطر ، ص٦٧.

(٦١) أبو نصر السراج الطوسي : اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي ، تحقيق عماد زكي البارودي ، المكتبة التوفيقية بدون تاريخ ، ص٣٠.

(٦٢) أحمد الجزار (دكتور) : دراسات في التصوف الإسلامي ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، الطبعة الأولي ٢٠١٥، ص١١٦-١١٧.

(٦٣) الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ، ص١٩٨.

(٦٤) المصدر السابق : ص١٨٩.

(٦٥) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١٢٣-١٢٤.

(٦٦) المصدر السابق : ص١٢٩.

(٦٧) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص٤٣ .

(٦٨) إبراهيم ياسين (دكتور) : في مشكلات التصوف الفلسفي ، ص٩٨.

(٦٩) المصدر السابق : ص١٠٣.

(٧٠) المصدر السابق : ص٤٠.

(٧١) المصدر السابق : ص٨٨ .

(٧٢) الجيلاني : الفتح الرباني والفيض الرحماني ، ص١٩٩وانظر فتوح الغيب : ص١١٨-١١٩.

(٧٣) المصدر السابق :ص٢٠٠وانظر في الباطن والظاهر المسمي جلاء الخاطر ، ص٧١.

(٧٤) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١٤٥.

(٧٥) المصدر السابق : ص١٤٧.

(٧٦) الفتح الرباني والفيض الرحماني : ص٧٨، وانظر في الباطن والظاهر المسمي جلاء الخاطر ، ص٨٢ – ٣٣ .

(٧٧) المصدر السابق ص٢٠٠-٢٠١.

(٧٨) المصدر السابق : ص٢٠١-٢٠٢وانظر فتوح الغيب : ص٨٨.

(٧٩) المصدر السابق : ص٢٠٢.

(٨٠) عبد القادر الجيلاني : الغنية لطالبي طريق الحق ، تقديم محمد خالد عمر ، دار إحياء التراث العربي ١٩٩٦م ، جـ١، ص١٧٣.

(٨١) المصدر السابق : جـ١ ، ص١٨٩.

(٨٢) أحمد محمود الجزار (دكتور) : الفناء والحب الإلهي عند ابن عربي ، مكتبة الثقافة الدينية بدون تاريخ ، ص٧١-٧٢.

(٨٣) عبد القادر الجيلاني : سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار تحقيق محمد عدنان الزرعي ، محمد غسان عزقول ، دار السنابل ١٩٩٣م ، ص٦٩.

(٨٤) المصدر السابق : ص٦٩-٧٠.

(٨٥) سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد محمد الزجاج ، كان أبوه يبيع الزجاج ، فلذلك يقال له القواريري أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه بالعراق صحب السرالقسطي والحرث المحاسبي ومحمد بن علي القصاب انظر الشعراني : الطبقات الكبري المسماة بلواقح الأنوار وبهامشه الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية – مكتبة صبيح ، القاهرة ١٣٤٣هـ ، جـ١ ، ص٩٣ ، وانظر عبد الكريم القشيري : الرسالة القشيرية في علم التصوف ، مكتبة صبيح القاهرة بدون تاريخ ، ص٣١ .

(٨٦) الجيلاني : في الباطن والظاهر والمسمي جلاء الخاطر ، ص١١٣.

(٨٧) الجيلاني : آداب السلوك ، ص٧٠، وانظر فتوح الغيب : ص٣٨.

(٨٨) آداب السلوك : ص١١٨-١١٩.

(٨٩) عبد الباري محمد (دكتور) : الفناء عند صوفية المسلمين والعقائد الأخرى ، الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٧م ، ص٤٣٣.

(٩٠) المصدر السابق : ص٤٣٣.

(٩١) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص٧٤-٧٥.

(٩٢) المصدر السابق : ص١٣٤.

(٩٣) المصدر السابق : ص١٦٩.

(٩٤) الجيلاني : آداب السلوك ، ص١٦٢.

(٩٥) المصدر السابق : ص٧٣.

(٩٦) الجيلاني : الغنية لطالب طريق الحق ، ص٤٨٥.

(٩٧) المصدر السابق : ص٤٨٨.

(٩٨) الجيلاني : آداب السلوك ، ص٩٨.

(٩٩) الجيلانـي : الغنيـة لطالـب طريـق الحـق ، جـ٢ ، ص٤٨٠ وانظـر الفـتح الربـاني والفيض الرحماني : ص٢٠٠-٢٠١.

(١٠٠) القشيري : الرسالة القشيرية ، ص١٤.

(١٠١) الغبيـة لطـالبي طريـق الحـق : جـ٢ ، ص٤٨٠ وانظر فتوح الغيب : ٩١.

(١٠٢) آداب السلوك : ص٨٠.

(١٠٣) المصدر السابق : ص٨١.

(١٠٤) إبـراهيم ياسـين (دكتـور) : المـدخل إلـي التصوف الفلسفي دراسة سيكوميتافيزيقية، بـدون ناشـر ١٩٩٦م ، ص١٣٠، وانظـر إبراهيم ياسين : تأنيس الإنسان في الفكر الصـوفي المتفلسـف رؤيـة حضـارية بـدون تأشر ١٩٩٢م ، ص٢٣.

(١٠٥) المصدر السابق : ص١٣١.

(١٠٦) إبراهيم ياسين (دكتور): تأنيس الإنسان في الفكر الصوفي المتفلسف ، ص٢٩-٣٢.

(١٠٧) إبـــراهيم ياســـين (دكتـــور) : دلالات المصـطلح فــي التصــوف الفلســفي دار المعـــارف ١٩٩٩م ، ص٤٢ وانظـــر المـدخل إلــي التصـوف الفلسـفي دراسـة ســيكوميتافيزقية بــدون تأشــر ١٩٩٦م ، ص١٠٥-١٠٦.

(١٠٨) أحمـد الجـزار (دكتـور) : فلسـفة الحيـاة الروحية في الإسلام ، قضايا وشخصيات، ص١٢٩.

(١٠٩) الجيلاني : آداب السلوك : ص٧٨.

(١١٠) المصدر السابق : ص١٦٣.

(١١١) الجيلاني : فتوح الغيب ، ص١٢.